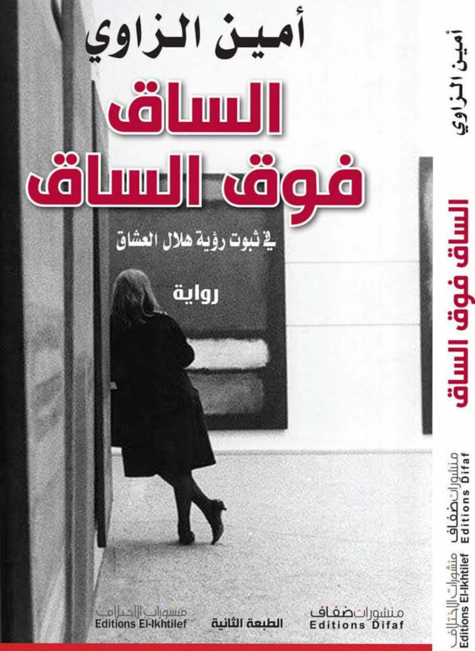

أمين الزاوي
الساق فوق الساق
في ثبوت رؤية هلال العشاق
رواية
منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
الطبعة الثانية
منشورات ضفاف
Editions Difaf
القائمة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية 2018
أمين الزاوي
الساق فوق الساق
منشورات ضفاف
Editions Difaf
منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef



طبع في لبنان

الساق فوق الساق

في ثبوت رؤية هلال العشاق

رواية

أمين الزاوي



منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

الطبعة الأولى

1437 هـ - 2016 م

ردمك 978-614-02-1484-2

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

هاتف بيروت: +9613223227

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: +213 21676179
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

بشغف:

كتبتُ هذه الرواية بشهيَّة، على دفعة واحدة، وكأنني كنت أخشى أن أنسى تفصيلاً من تفاصيلها التي أحملها جمرًا في داخلي منذ سنوات.

كتبتها وأنا أردِّد: تصبحين على خير أيتها الطفولة، لكن هذه الأخيرة تأبى أن تنام، الطفولة لا تنام أبدًا يا صاحبي.

أمين الزاوي

قبل كل شيء:

في الثورة لا مقدس ولا قديس!

في الثورة نحتاج فقط إلى امرأة.

أمين الزاوي

1

عاشق عمّته!

أنا الحلزون العاري، "بوطشل" كما يُسَمّى عندنا في بلاد البربر، و"بوطشل" هو ذاك الحلزون دون صدفة، أي البـــزّاق كما يسمى في بلاد العرب. هكذا كانت تُســـمّيني عمـــتي ميمونة وتسخر مني كلما رأتني قائلة: "بوطشل العريان بالوا عليه الجديان!".

وكنت أبكي تارة، وتارة أخرى لا آبه لكلامها.

أحب عمتي ميمونة.

خَمْسَة وخْمُوسْ عْليها!

2

الأمير الضاحك!

قلة قليلة مِن البشر تعبر سنوات العمر بِـــنَهَم، تعضـــض على تفاحة الحياة بأسنان قوية، حيث في التفاصيل اليومية ما يفوق الخيال، عمي إدريس من هذه الفئة السعيدة حـــتى في لحظات التعاسة.

عبر عمي إدريس حياته ضاحكًا، ملكًا.

كان رجلاً جميلاً، متفائلاً.

بالنسبة للجميلات من نساء القرى والمداشر المعلقة على رؤوس الجبال وعلى التلال، كان عمي إدريس مثيرًا لهنّ من خلال حجم قدميه الصغيرتين اللتين تشبهان قـــدمي دميـــة بلاستيكية، أكثر مما كان يُثيره فـــيهنّ لـــونُ عينيـــه الأزرق الصافي.

لون عينيه قطعة من سماء في ساعة قيلولة صيفية.

كان أميرًا في كل شيء.

أما بالنسبة إلى الشباب والأطفال، فما كان يثيره فيهم هو كذبه الأبيض الناعم؛ فعمِّي إدريس يكذب عن كل شيء وفي كل وقت، ويرسل ضحكة طويلة عقب كل كذبة.

الكذب عسل حر!

كان طيرًا من فصيلة نادرة.

حرير ياباني أصيل.

لا أحد يُشبه عمي إدريس ولا هو شَبيه بأحد، فريد فصيلته. لم تطأ قدماه مدرسة نظامية يوميًّا، كل ما تعلمه من كتابة وقراءة وحساب يسير كان عن طريق مدرسة الراهبات التي قضى بها بعض الوقت، والتي كانت تنشط في المنطقة، وكان الناس يقدرونها على ما تقوم به من أعمال خيرية ومساعدات طبية تقدمها لأبناء المنطقة.

تزوج عمي إدريس مرتين، وأنجب دزينة من الذكور والإناث، وسافر إلى بلاد الفرنسيس والطليان والإسبان واليونان والترك وبلاد أحفاد الفراعنة وغيرها من أرض الله. سافر برًّا وبحرًا وجوًّا، ورقص وضحك أكثر من غيره، وشرب المحرّم وشرب ماء زمزم. وعرف نساء كثيرات، نساء المواخر والشوارع ونساء عربات القطارات الليلية، وتذوق شَهد عسل نساء المسئولين عليه من المدراء العامين ومدراء

المصالح، زوجات وعشيقات كبار القوم. كانت له جاذبية خاصة بابتسامته المميزة، وخاصة حين فقد نابه الأيسر، عفوًا الأيمن، وقد بلغ الثلاثين. أصبحت ابتسامته أكثر سحرًا وإغراء للنساء.

في بلاد العجم التي أقام فيها عمي إدريس، على روايته والله أعلم، حيث لا أحد يعرف نسبة اليقين من الكذب فيما يرويه، وهذا ليس بمهم، المهم والأهم هو شهوة الحكاية، كان قد صرف من عمره عشريَّتين أو ما يقارب ذلك بعيدًا عن قرية قصر المورو. مرات ينسى أنه كان قد صرح لنا في جلسة سابقة أنه قضى خمسة عشر عامًا بالتمام والكمال، فيضيف عليها سبعًا ثمانًا أو ينقص منها خمسًا، لا يهم، وأنه في زمن بلاد الروم والروميات لم يصلِّ ركعة واحدة، يقول ذلك ويقهقه. ولم يتوقف عن شرب البيرة التي أحبها أكثر من غيرها من المشروبات الكحولية المغرية كالنبيذ والويسكي والريكارد، يقول ذلك ويقهقه. لكنه لم يفطر يومًا واحدًا من أيام رمضان، رمضان مقدس، حرمة الصيام فوق كل حرمة. مع حلول شهر رمضان يتوقف عن الشرب، لكنه لا يستطيع الكفَّ عن زيارة المواخر وبيوت المتعة ليلاً.

عمي إدريس رجل من حكاية، بل هو الحكاية نفسها. كل حكايات أهل قرية قصر المورو تبدأ منه وتنتهي عنده.

لقد شيّد جدنا الأول المورو بن علي القصر الذي أقيمت على أساسه القرية لاحقًا، والتي سُمِّيت باسمه: قرية قصر المورو، على شكل قصر أندلسي صغير. ويقال إنه بناه على شاكلة هندسة قصر الحمراء، لكن بحجم أصغر، وقد استنجد في تشييده بمجموعة من الحرفيين المَهَرة الذين استقدمهم من فاس ودلّس ومكناس وبجاية؛ فرفعوا عماده في زمن قياسي، وزينوا الأقواس وجدران الغرف والصالات بزخارف منقوشة على الجص والرخام التقليدي، تشبه في أشكالها السجاد الفارسي، مع كثير من الآيات القرآنية والأبيات الشعرية والحكم الفلسفية بالعربية والعبرية، والتي لا تزال بعض آثارها باقية حتى الآن في القسم الأساسي للقصر، خاصة في غرفة الجد المورو الروخو بن علي. مع مرور السنين كبر القصر وأصبح قرية بعد أن أضيفت إليه أزقة ومداخل وبيوت وأبواب للنساء وأخرى للرجال وثالثة للعشاق.

لا يزال جدي حمديس، الذي أشبهه كثيرًا، يقيم في ذات الغرفة التي سكنها جده الأول. وهو يقول إنه كثيرًا ما يُجري حواراتٍ معه وكأنه حيّ، يسأله عن الذرية وعن الشجرة، ويتأسف لسقوط الزخارف وإعادة ترميم السقف بخشب غير أصيل.

في تلك القرية التي تُسمَّى قرية قصر المورو أو قرية المورو اختصارًا، والتي يحمل جميع ساكنتها نفس الاسم: مورو، الذين وصل عددهم إلى ألف نسمة، يقل سبعين رأسًا، ويتزايد العدد كل سنة بسبعة عشر أو أكثر من الرؤوس البشرية الجديدة إناثًا وذكورًا بالمفرد والتوأم. الجميع يشبه الجميع، ولا يموت منهم سوى الشيوخ الذين تجاوز عمرهم التسعين أو أقل بقليل، أو أكثر بقليل. عُرِفتْ قريةُ قصر المورو بأهلها من المعمرين، أي الذين يعمرون في الحياة طويلاً. في هذه القرية وُلد عمي إدريس، وفيها وُلد جده وجد جده الأول الذي يروي عنه ابن خلدون في كتابه "المقدمة"، وكذا ابن خلكان في كتابه "وفيات الأعيان"، أنه ينحدر من سلالة الموريسكيين أو المورو، الذين طردهم الملكة المسيحية فكتوريا وزوجها فرديناند يوم سقوط غرناطة. ويذكر صاحب "أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر" ‘‘أن من بقي من المسلمين في مالقة عقب سقوط غرناطة عبروا البحر، عبر أهل المرية إلى تلمسان، وعبر أهل الجزيرة الخضراء إلى طنجة، وعبر أهل رُنْدة وبسطة وحصن موجر وقرية الفردوس وحصن مارتيل إلى تطوان، وعبر أهل بيرة وبرجه واندرسن إلى ما بين طنجة وتطوان، وعبر أهل بلش إلى سلا، وخرج الكثير من أهل غرناطة إلى بجاية ووهران وقابس وصفاقص وسوسة، وخرج

أهل مدينة طريف إلى آسفى وازمور". وكان جدي المورو الأول واحدًا من هؤلاء الهاربين الذين خلفوا إمارهم ونساءهم وخيلهم.

في قرية قصر المورو هذه يقيم أعمامي الثلاثة، وأعمام أبي، أي إخوة جدي الأشقاء وغير الأشقاء، وعددهم غير معروف. وأما من عُرف منهم فأربعة: البشير وخلدون وطفيل، أما الرابع، واسمه عبد البرّ، فقد كان يرى في الليل أدق الأشياء ويفقد بصره عند الصباح مع طلوع الشمس، وقد بلغ عمره قرنًا وثلاثة وعشرين عامًا بالحساب الميلادي، ويقال إنه شاهد الفرنسيين الأوائل يدخلون القرية ويحطون الرحال بها، وهم يلبسون أحذية مطاطية سوداء اللون تصل حتى الركب على الرغم من حرارة الفصل، رآهم وهم يؤسسون أولى مستوطناتهم الزراعية على أراض صادروها من الفلاحين أبناء البلد، ومن بينها أرض آبائه وأجداده الذين بدورهم كانوا قد استولوا عليها عقب نزوحهم من نكبة الأندلس. ويقال إنه كان سيشعر بالسعادة لو حضر رحيلهم عن هذه الأرض، لكن الدنيا لم تمنحه بعض السنوات ليرى ما كان يحلم به.

وأما طفيل فقد خلَّف مجموعةً كبيرة من الأولاد والبنات. لا أحد يعرف عددهم أيضًا، وله من الأحفاد

والحفيدات قطعان كثر، دون عدّ. ولعل من تميز من أحفاده هو الذي يشتغل ميكانيكيًّا في الطيران، ويقال إنه يعرف قيادة الطائرة النفاثة وطائرات النقل المدني بكل أنواعها.

أما البشير وخلدون فهما توأم، وهما أصغر إخوة جدي. ويبدو أن الأول اختفى بعد أن ترك كل شيء لأبنائه وبناته من الزوجة الأولى، وهاجر وهو يبلغ من العمر أزْيَد من نصف قرن خلف امرأة شابة أحبته، وكانت رغبتها الوحيدة أن تدفنه بيديها. تعرّف إليها في واحدة من أسفاره إلى مكناس، وكانت تقول له: "أريد أن أعيش معك لشيء وحيد، لا السرير ولا المال غوايتي فيك، ولا الولد أو الذرية أنتظره منك، أريدك كي أدفنك، أحب أن أرد عليك التراب بيدي، وأشعر بجسدك يذوب في الأرض يا البشير، وأنا جالسة عند شاهدة قبرك في يوم صهد قاتل".

أما خلدون الذي يبدو أصغر من عمره بكثير فقد دخل في عزلةٍ مطلقة، بعد أن هاجر أخوه التوأم قرية قصر المورو. لا يخرج من غرفته، لا يكلم أحدًا ولا يردُّ على أحد. وحين اضطر أبناء القرية إلى الهجرة بعد أن لعلع البارود وقامت الثورة المجيدة، رفض الذهاب معهم وظل متمسكًا بغرفته بعد أن حاول جدي حمديس إقناعه لليلة كاملة. وقد هاجر الجميع وتركوه بعد أن وفروا له كثيرًا من الغذاء. لم يكن

أكولاً، كان كالطير لا يأكل إلا مقدار تمرة ولا يشرب إلا مقدار رشفة منقار.

لقد توزع غالبية أبناء القرية من الجيل الجديد على مدن الدنيا. العِلْم يفرِّق ولا يجمع يا صاحبي! سافر بعضهم خلف البحر وبعضهم الآخر نحو أقاصي الصحراء. بعضهم نحو بلدان تطلع عند رأس أهاليها الشمس وآخرون نحو أخرى تغرب في حضنها الشمس. بعضهم للدراسة؛ لأن جدي الأول المورو كان يُوصي بذلك مرددًا عبارته المشهورة، التي لا تزال بعض الحروف منها منقوشة على جدران غرفة جدي حمديس: "العلم خلاص الإنسان من الهلاك". وقد نُقِل عنه أيضًا أنه قال: "لولا معرفتي بكتاب الله وحملي لنسخة نادرة منه في متاعي، إلى جانب كتب أخرى في الفلك والشعر والخط والزراعة والخيل والتاريخ؛ لما استطعتُ أن أواجه مصيري وهزيمتي في خسارة إمارتي بالأندلس". بعضهم هاجر للتجارة وبعضهم للمغامرة وبعضهم للضياع، وبعضهم سار في سُبُل دون هدف، ولكن جميعهم كان يعود إلى القرية حين يريد أن يتزوج؛ كي يختار له واحدة أو تختار لها واحدًا. يقف في غرفة جدي حمديس يقرأ كلمات جدِّنا الأول المورو بن علي، ثم يتأمل ما بقي من سقف الغرفة الأخيرة في القصر، ثم يرحل مليئًا بإحساس

الانتماء والرغبة في العودة ثانية، ولو للنوم الخالد في مقـــبرة العائلة المسمّاة الدومة.

في قرية قصر المورو هذه، التي هي إمارة الجد الإفريقيـــة التي عوض بها إمارته التي فقدها في الأندلس الأوروبية، سار عمي إدريس على تلالها، ومشى في سهوبها خلف قطعان المعز لسنوات حتى بلغ سن السقي والحرث، ولم يجلس على حصير مسجد أو مدرسة قرآنية يومًا. كان يفضل مدرسة الراهبات التي قضى فيها بضعة أشهر عن الجلوس إلى الفقيه الأمازيغي الشيخ اعمر اومحند، الذي يحفظ القرآن عن ظهر قلب بلغـــة قريش ويعرف معناه ويفسره، لكنه وبمجرد أن يضع رجلـــه خارج مسجد القرية المركزية لا ينطق بكلمة واحدة بالعربية، كل حديثه اليومي بالأمازيغية.

يقال إنه سقط صغيرا في عشق مُدرِّسة راهبة في عمر أمه تامولت، حتى أضحى لا يفارق المدرسة، يمشي ظـــلا ثانيـــا للراهبة التي كانت رقيقة تجاهه، وربما هي الأخرى كانـــت تعشقه، كل هذا جعل جدي حمديس يمنعه مـــن مواصـــلة الدراسة في هذه المؤسسة خوفا على عقله وقلبه ولغته ودينه! كما يقول.

إذا كان الأطفال من مجايليه قد تعلموا العربية وحفظـــوا كتاب الله أو أجزاء منه، فعمِّي إدريس تعلم وبسرعة اللغـــة

الفرنسية عند الراهبات، وأتقن اللغة الأمازيغية بشكل عفوي من هذا الفقيه الذي كان مغرمًا برجل اسمه ابن تومرت، وهو أول من ترجم القرآن إلى لغة الأمازيغ، كما يروي الفقيه نفسه، والله أعلم.

القرآن في لغة غير لغة الله، لغة الجنة!

أليس هذا بحرام؟

كان عمي إدريس يطلق على عنزاته أسماء هي أسماء أبناء وبنات القرية، فلكل رأس عنزة اسم رأس بشر، ذكرًا أو أنثى، صغيرًا كان أو شابًّا أو شيخًا، لا يهم، وكان الجميع يتقبل منه ذلك بضحكة وبمسرَّة، بل إن بعضهم كان فخورًا أن يُسمّى باسم تيس فحل يركب جميع العنزات وينتج في الموسم من الذرية العنزية الكثير من شبهه. وكانت البنات تسعد بأن تُطلق أسماؤهن على عنزات يلدن التوأم ويتناطح لأجلهن التيوس الفحول ذوو القرون الكبيرة حتى يسيل الدم.

للدم سلطة رمزية كبيرة: في الختان وفي العذرية وفي الحيض وفي أضحية العيد!

لم يفكر عمي إدريس في الزواج يومًا كما هي حال أبناء الدشرة من جيله قبل بلوغهم العشرين. كان يعتقد بأنه خلق كي يكون في خدمة الجميع، يشعره من يحيطون به باهتمام وانتباه وعطف وكأنه مشاع بينهم، ملكية جماعية، فهو الذي

يتولى تنظيف البئرين اللتين يُسقى منهما أهل الدشرة، ومنهما تشرب دوابهم من الأغنام والأبقار والحمير والبغال، يقوم بذلك مرة واحدة في السنة مع بداية كل خريف، مباشرة بعد سقوط الأمطار الأولى التي يسميها ناس قرية قصر المورو بـ "غسالة النوادر". مطر ينزل عادة بلون أحمر، أو قريب من الاحمرار، يحدث ذلك تقريبًا في الأسبوع الأول من شهر سبتمبر أو نهاية شهر أوت. ويومُ تنظيف البئرين يوم مشهود، يسمى يوم التويزا، فيه تنحر أضحية ويأكل الجميع الكسكسي باللحم والخضار يُقدَّم في قصاع كبيرة ضخمة. وبالمناسبة يتم ختان ثلاثة أطفال، فالبئر علامة خير وفحولة وبقاء، يتجمع بعض الأزواج القادمين من القرى المجاورة لقضاء ليلة في العراء حول البئر، تحت جنح الليل يمارس الرجال مع نسائهم بوهج شبقي عنيف، فيُسمع صهيل الشبق البشري من على مسافة بعيدة. يحدث ذلك مرة في العام، متذرعين إلى السماء أن تمنحهم ذكرًا إذا كان بيتهم عامرًا بالبنات، وطالبين من الله أن يزرع بذرة معطاء في رحم الزوجة إذا كانت تعاني من العقم أو من تأخر الحمل. البنون زينة الدنيا، في قريتنا سبب العقم هي المرأة دائمًا! وفي كل سنة تستجيب السماء للنائمين على أطراف البئر، لكل واحد ما نوى، كل دعوة مستجابة. يقول عمي إدريس: "لا أحد

خاب ظنه في ليلة البئرين، إنها شبيهة بليلة القدر". ويضحك، يقهقه، يضرب برجليه على الأرض، يتصاعد الغبار، يدخِّن ويروي حكاية، أية حكاية.

الحكاية أصل الزمن، رحم الحياة.

عمي إدريس الذي لا يحفظ آية واحدة من آي القرآن، لكنه يحفظ قصيدة الحرية لبول إيلوار.

Sur mes cahiers d'écolier

Sur mon pupitre et les arbres

Sur le sable sur la neige

J'écris ton nom

Et par le pouvoir d'un mot

Je recommence ma vie

Je suis né pour te connaître

Pour te nommer

Liberté.

كل عام ومع حلول ليلة الشك، الليلة التي تسبق مطلع شهر رمضان، يقوم بإخراج حصائر المسجد الصغير، يغسل الأرضية بالصابون والماء الحلو الذي يجلبه من البئر، بعناية فائقة ينفض الغبار من على الحصائر ومن على أغلفة الكتب

التي تصطف على لوح قديم، ويعيدها كما كانت إلى مكانها بعد أن يقبِّلها واحدًا واحدًا دون أن يعرف ما فيها ولا ما هي ولا ما بداخلها؛ فهي في رأيه كتب مقدسة ما دامت في مكان هو بيت الله. ومن بين عناوين الكتب التي على الرف كانت هناك نسخة حجرية عثمانية من كتاب "ألف ليلة وليلة"، ونسخة من كتاب قصة "الإسراء والمعراج"، وديوان الشريف الرضي، إلى جانب ديوان أبي نواس، وثلاث نسخ من المصحف الشريف، وصحيح البخاري وصحيح مسلم والآجرومية وألفية ابن مالك.

يتفحص عمي إدريس تلك الرسومات التي تزين النسخة الحجرية العثمانية لكتاب "ألف ليلة وليلة"، رسومات مثيرة وجريئة، نساء عاريات نائمات في حضن رجال أو تحتهم، جرار خمر وآلات موسيقية وطواويس وغلمان ووسائد وزليج حمّامات، يتأمل ذلك مستغربًا وجود هذا الكتاب الذي بهذه الصور الخليعة والمثيرة في هذا المكان المقدس، بيت الله.

ويضحك وهو يقلب الصفحات!

حاول مرة الاستنجاد بأخي الأكبر لقراءة بعض صفحات من هذا الكتاب، ولكن هذا الأخير لم يفهم شيئًا. كان عمي يراقب أخي وهو يحاول أن يفك أسرار الكتابة وهو فرح به، وكلما لاحظ أخي مجيد مراقبته له كان يزيد

من إصراره على التركيز أكثر. مثل أخي، لم يكن عمي ليفهم شيئًا ما يُتهَجّى به. وحينما لا يفهم، وهو لا يفهم شيئًا، يزداد تقديسه للمكتوب وللكتب ويتعاظم.

في رأي عمي إدريس: عظمة الشيء تكمن في عدم فهم هذا الشيء من قبل العامة. الأشياء العظيمة هي التي تفوق الفهم العام.

هذا المسجد، الواقع أنه مصلى وفقط، لا اسم له، بناه الجد الأول لأبنائه وأحفاده من حُرِّ ماله، يظل مغلقًا طوال أيام السنة، لا يفتح سوى في شهر رمضان حيث يرفع فيه أذان الإفطار دون غيره من الأذانات، وتُصلَّى فيه التراويح دون غيرها من الصلوات.

يوم قرر جدي تزويج عمي إدريس لم أكن قد جئت إلى الدنيا بعد، ومع ذلك فجميع أفراد قرية المورو وسكان القرى المجاورة يذكرون ويتذكرون ليلة عرسه بتفاصيلها، ليلة ليست كالليالي، وكيف أن الجميع كان فرحًا، ولم يتأخر أحد في المساهمة في العرس كما لو أنه لأخ أو قريب، بحزمة حطب أو بكيس قمح، أو برأس غنم أو بمدِّ فراش لضيوف، أو بدفع مستحقات فرقة العرفاء الفلكلورية الشهيرة في المنطقة، التي يتم استقدامها من قرية بوعدال التي تبعد عن قرية قصر المورو مسافة ثلاث ساعات على ظهر بغلة، تصاحب الفرقة راقصة

مثيرة، لها سيقان شهية ولها ردفان وخدان عليهما حمرة زائدة، وسالف اصطناعي طويل ينزل حتى أسفل ظهرها.

لم يكن جدي يبحث لعمي عن زوجة، بل كان يريد أن يختار له أمًّا ثانية تعتني به؛ فهو لم يرد أن يفارق عبث الطفولة وجنونها، ولقد وجد في سكينة العانس فتاة من صبر وجَلَد.

لم تكن سكينة جميلة، و لم يعترض عمي على ذلك، وهي التي تكبره بثمانية أعوام أو أكثر، بل إنه شعر براحة في هذا الاختيار؛ لأنها، ومن ليلة وصولها إلى سريره، تقمصت صورة الأم في رأسه. كما إنها تولت تسيير شؤون البيت، فهي التي تدير المصاريف، وتطلب منه ما يجب القيام به وما لا يجب القيام به، من طريقة ولحظة ممارسة الجنس إلى ساعة سقي الماء، وكان سعيدًا أن يتنازل لها عن المسئوليات جميعها؛ ليظل متفرغًا للضحك والحكايات المغلفة في سيلفان الكذب الأبيض.

3

الحلزون العاري!

قبل انطلاق الحرب التحريرية بسنتين وبعض شهور، هاجر عمي إدريس إلى فرنسا للعمل، شأنه شأن كثيرين من أبناء القرى، ومع اندلاع الثورة بأيام اختفى أبي مع المجاهدين في الجبال، كان أول من التحق بالجبل، ومن بعده اختفى جميع الرجال واحدًا إثر الآخر، ولم يبقَ في قرية قصر المورو من الكبار سوى جدي وأخيه وعويشة والنساء والأطفال، وانقرضت قطعان المعز أو كادت، لا أحد عرف كيف تلاشت، أي ذئب افترسها في غفلة من الجميع، وشحَّ ماء إحدى البئرين في الأسبوع الثالث لسفر عمي إدريس، وكأنما أخذ معه في حقيبته الجلدية النبع الذي منه تمتلئ البئر التي منها يرتوي أهل القرية، ومن مائها تكرع دوابُّهم وماشيتهم.

أخبار الحرب ساخنة.

الخوف.

ذات صباح، حوصرت قرية قصـــر المـــورو بآليـــات عسكرية كثيرة، واستقرت كتيبة من العســـكر الفرنســـيين بالمسجد الصغير واتخذوا منه قاعدة لهم، وفرضوا على الجميع نظام سقاية خاصة حتى لا ينفد الماء، وتذكرت النساء عمي إدريس الذي كانت بركته تحمي البئر من كـــل جفـــاف أو تلوث.

لم تَطُلْ لأيام حتى حوَّل الجيش الاستعماري قرية قصـــر المورو والأراضي التي تحيط بها إلى منطقة عسكرية محظـــورة، وطلبوا من الأهالي إخلاء المكان، فما كـــان مـــن النســـاء والأطفال إلا أن زحفوا إلى ما خلف الحدود، ليستقروا تحت خيام على الأراضي المغربية، على بعد أمتار من الخط الفاصل بين البلدين: الجزائر والمغرب، كل ذلـــك بقيـــادة جـــدي حمديس. كان الكبار من اللاجئين يصعدون إلى رأس تل مُطِل على أراضيهم ومساكنهم في الجهة الأخـــرى مـــن شـــريط الحدود، يجلسون بعض الوقـــت ينظـــرون إلى مســـاكنهم وأملاكهم التي غادروها قسرًا، والتي يبدو مـــن حركـــات سيارات العسكر الفرنسي أنها حُوِّلت إلى مقر للقيادة الميدانية للعمليات العسكرية على الشريط الحدودي.

أمي غنوجة التي هاجرت كما هاجرت زوجات أعمامي والأخريات وبناتهن وسرب من الأطفال، شعرت فجأة بشيء يتحرك في بطنها، إن في أحشائها ساكنًا جديدًا، ولم يكن ذلك الساكن سوى أنا.

على بعد بضع مئات الأمتار من الحدود، وفي أرض شبه خربة اسمها دار عثمان أولاد بوعزة، حيث نُصبت خيام اللاجئين، ولدتُ. ولدت يوم انعقاد مؤتمر الصومام، هذا ما يقوله جدي الذي لا يفارق المذياع الصغير أذنيه، من اليسرى إلى اليمنى ومن هذه لتلك.

التاريخ ليس دقيقًا، وتسجيل ولادة الأطفال ليس مهما، مع أن أذن جدي لم تكن لتبتعد ولو لدقيقة عن صوت إذاعة الثورة من المغرب أو من القاهرة.

كان الجميع فرحًا بي؛ لأنني أنزل من بطن أمي بشارة خير على اقتراب موعد عودتنا إلى أراضينا وديارنا وقريتنا التي بناها جدي الموريسكي الذي كان له اسمان: اسم إسباني هو الروخو ومعناه الأحمر، كان يطلق عليه هذا اللقب لشعر لحيته الحمراء، وابن علي نسبة إلى فقيه الخليفة الموحدي ابن تومرت، أول من ترجم القرآن إلى الأمازيغية كما تروي بعض الكتب.

عند الإعلان عن وقف إطلاق النار ما بين الجيش الاستعماري وجيش التحرير الجزائري، زغردت أمي

وزغردت النساء لحدثين: حدث توقيف إطلاق النار، وهـذا يعني أن الثورة منتصرة وأننا سنعود قريبًا إلى دشرتنا، والثاني مجيئي إلى هذه الحياة ذكرًا بعد مجموعة كثيرة من البنات.

هكذا تم تسجيل تاريخ ولادتي في سـجل المهـاجرين اللاجئين من قبل هيئة الصليب الأحمر، في عين التاريخ وُلدت فرنسيًّا في مخيم اللاجئين، هاربًا من بلد رفض الجميع البقـاء فيه، ورفض الجميع البقاء تحت سلطته الاستعمارية.

منذ الشهور الأولى لقبتني جـدتي تامولـت ببوطشـل أي "البزّاق"، الحلزون العـاري، وسـجلوني في سـجلات الصليب الأحمر بـ «Limace» وهي ترجمة لكلمـة البـزّاق بالفرنسية، فهمت ذلك لاحقًا. أُطلِق عليّ هذا الاسم لأنـي كنت طوال الوقت عاريًا، صيفًا وشتاء، وحتى حين كـبرت قليلاً وأصبحت أخرج للعب مع أقراني كنت أحب الخروج عاريًا.

عاريًا أشعر بالحرية المطلقة، أشعر بالـذوبان في الهـواء والضوء!

ذاك المساء، وبمجرد الإعلان عن توقيع معاهدة إيفيـان، أسرع جدي حمديس، والمذياع كعادته في أذنه، وهو يصرخ في الجميع ويدور مخيمات اللاجئين يتبعه عويشة كظله الثاني: "العودة، العودة، لقد دقت ساعة العودة إلى ديارنا".

بعد أيام قليلة، زارت مخيم اللاجئين شخصيةٌ مهمة. رجل أربعيني، بدا ذلك من خلال الاحتفاء الواضح بقدومه والحراسة التي أحيط بها. ثلاثة أيام بعد هذه الزيارة، ومع الصباح الباكر لليوم الرابع، بأمر من جدي حمديس، تحركت القافلة بنسائها وأطفالها وبناتها وبعض حيواناتها القليلة، بزيادة مجموعة من المواليد، من بينهم أنا. أمشي تارة وتارة أخرى أركب ظهر أختي الكبرى، والتي لها اسمان: سارة، وهو الاسم الذي أطلقه عليها والدي الذي كان على اطلاع على كتب الدين وقصص الرسل والأنبياء والخلفاء. سارة اسم مقدس عند كل من اليهود والمسيحيين والمسلمين، فهو اسم زوجة النبي إبراهيم، أبو الديانات السماوية جميعها، وهي التي، كما تروي الكتب السماوية، حين أصبحت عجوزًا وعدها الله بولد، وهي في العبرية (שָׂרָה) ومعناها الأميرة أو السيدة النبيلة. أما عمي فكان يطلق على أختي اسم "مْرِيقْمَا" وهو اسم طائر "الخطافة" بلهجة أهل قرية المورو. حين كبرت نسيت أنا الآخر اسم سارة وصرت أناديها بمريقما، وهو الاسم الذي يناسبها أكثر، فهي تشبه السنونوة. ولم يكن من سكان قرية قصر المورو جميعهم من يناديها باسم سارة سوى والدي الذي كان مبتهجًا بما تعلمه من كتبه، كان كلما ناداها باسمها الرسمي "سارة" عاد فروى لنا حكاية سارة

زوجة سيدنا إبراهيم التي ولدت له غلامًا وهي عجوز، وكنا نضحك من هذه الحكاية، ونطلب من جدتي أن تلد لنا عمًّا جديدًا صغيرًا نلعب به ومعه.

العلاقة الخاصة والمتميزة التي تربط جدي حمديس بأمي غنوجة كثيرًا ما أثارت الغيرة لدى زوجات أعمامي وبناهن وعند خالاتي أيضًا. هي علاقة تتراوح ما بين التقدير والاحترام، والشعور الغامض! أدركت ذلك لاحقًا، لأمي غنوجة هالة عجيبة تحيط بعينيها ولها صمت يثير الاحترام، وصوت لا يُسْمَع لكنه وازن ومثير للإعجاب، لا تشبهها امرأة أخرى في حشمتها وترددها وذكائها الصامت. مرات كثيرة كنت أتساءل عن سر الشبه بيني وبين جدي حمديس؟ ولكن شكوكي كانت تتبدد بمجرد أن أنظر إلى والدي وأجده نسخة من والده، أي من جدي. كانا يتشاهان كقطرتي ماء، في بحة الصوت وفي بياض الوجه ولون شعر اللحية الأحمر الحنائي الذي ورثاه عن الجد الموريسكي الأول المورو بن علي، الذي فقد إمارته الصغيرة التي كان على رأسها بالأندلس، يتشاهان في شكل القدمين وفي الجلسة والمشية والضحكة وطريقة ترتيل القرآن والنظرة وعقدة الحاجبين. كنت أرتاح إذا جلست في مجلس هما فيه لأشرع في عد علامات التشابه وعلاقتها بي. كنت أقرب إلى

جدي تارة وأقرب إلى والدي تارة أخرى. حين يميل شبهي لجدي أتمنى لو أن جدتي ولدتني كما ولدت سارة غلامًا لإبراهيم وهي العجوز المتهالك وأضحك بصمت. وحين تظهر ملامح أبي فيّ أتذكر أخي الأكبر مجيد الذي أثير غيرته لشبهي بأبي، أما هو فكان أقرب لملامح أمي وأختي سارة.

حين وصلنا قرية قصر المورو تلك الظهيرة بعد غيابٍ دام قرابة الخمس سنوات، وجدناها فارغة، شبحًا، بعض غرف البيوت كانت ملأى بالأسرّة الحديدية ذات القوائم العالية، أسرّة العسكر والكثير من المطارح الإسفنجية مرمية على الأرضية، وفي الباحة قدام الجدار الخارجي، بعضها عليه بقايا الدم والبول والمشروبات الغازية والكحولية، وبقايا الأكل، والجرائد، والرصاص، وبعض الألبسة والشراشف وبقايا حقن كثيرة وقطن وأنابيب طبية وضمادات وكبسولات، وأدوية في علب كرتونية مفتوحة وأخرى لا تزال مغلقة، وقنينات سائل اليود الأحمر، وذباب كثير وروائح غريبة. لقد حول العسكر الفرنسي قريتنا، في غيابنا، إلى مراقد عسكرية ومستشفى ميداني.

بوصولنا، لم يتردد جدي حمديس في اتخاذ القرار التالي، وعلى عجل، إذ أمر الجميع بجمع كل أدباش وأغراض

ومخلفات العسكر الفرنسيس. كُدست المخلفات في ساحة فارغة قبالة المسجد الذي وُجد فيه هو الآخر مكتبان وأوراق وقوائم، وبعض الأوراق النقدية والروايات البوليسية والمجلات الإيروتيكية المصورة. تم صب البنزين على ما جُمع وأضرمت النار. كانت الأدوية تطقطق وهي تحترق في ألهبة النار، وتنبعث منها روائح كريهة. المطارح الأسفنجية التي احترقت بسرعة ساعدت على التهام الباقي بقوة.

كان جدي حمديس مبتهجًا بالعودة، ملامح الفرح بدت واضحة على جبهته العريضة، ولون لحيته الحمراء التي بدأت تميل نحو البياض قليلاً ازداد بهاء. كان خائفًا من أن يموت في مخيم اللاجئين فيدفن هناك بعيدًا عن مقبرة الدومة العائلية. تفقّد ماء البئر فوجده كما تركوه، وخوفًا من أن يكون به سم أو شر ما فقد أمر بتفريغه على آخره في الليلة الأولى للعودة. وحين شرعوا في سحب الماء سطلاً بعد آخر إذ بهم يعثرون على بقايا جثة، وحين نودي على جدي وبمجرد أن شاهد العظام وفردة من نعله البلاستيكي عرف أنها لأخيه خلدون!

وفي الجمعة الأولى للعودة، وبعد تفريغ البئر وتعقيمه وتنظيف البيوت، أمر جدي بغسل المسجد بالماء والصابون من آثار العسكر، أرضية وجدرانًا وسقفًا، وقد لاحظ أن

الكتب التي تُركت على الرفين اللوحيين قد جمعت في صندوق و لم يختفِ منها أي كتاب.

بعد الاستفتاء الوطني، الذي تمَّ بموجبه الإعلان عن الاستقلال رسميًّا، أصبحنا نعيش في "الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية"، ورفعنا العلم الوطني فوق كل السطوح. شعرتُ بسعادة على ملامح وجه والدي الذي نزل من الجبل، نزع عنه لباسه العسكري، وعاد في صمت إلى عمله كموثِّق، بالموازاة مع اعتنائه بفلاحة قطعة الأرض العائلية المشتركة التي ظلت قطعة واحدة لم تقسم بين الورثة منذ جدي الأول المورو بن علي.

لم تمض أيام كثيرة على عمر الاستقلال حتى زارنا أحد المسئولين الإداريين أو الحزبيين مرفوقًا بمساعدين. جابوا القرى والمداشر في سيارة عسكرية رباعية الدفع، وسجلوا بعض حاجيات الأهالي المستعجلة، خاصة اللاجئين الذي وجدوا بيوتهم قد تحطمت أو خربت، وبعدها بأيام توقفت شاحنة مقطورة على بعد بضعة كيلومترات من قريتنا؛ إذ لا يوجد طريق معبد يوصلها إلينا. نزل والدي على ظهر البغلة ليستطلع ما حملته الشاحنة، انتظره الجميع، نساء وشبابًا وأطفالاً عند مدخل القرية، عند السور الخارجي. وبعد ساعة عاد محملاً بتنكات الزيت والغاز المميع، وأكياس الدقيق

والأرز، والعدس والفاصوليا، والقهوة المطحونة وقوالب السكر، وبعض علب الشاي وعلب الشمع، ومصبرات وأشياء أخرى.

ولم يمضِ أسبوع آخر حتى توقفت شاحنة كبيرة، أكبر من الأولى، في المكان ذاته، وركب أبي البغلة ثانية مصحوبًا بعويشة، وعاد هذه المرة بأكياس الإسمنت كمساعدة من الحكومة لترميم البيوت التي تهدمت أو خُرِّبت جراء سنوات الحرب والتهجير. وقد فضَّل جدي، باقتراح من والدي، أن يتم ترميم المسجد أولاً، مع أنه مغلق طوال أيام السنة ولا يرفع فيه آذان إلا آذان إفطار رمضان، ولا تقام فيه إلا صلاة التراويح وصلاة العيدين، ولكنه، ومع ذلك، يظل في عيون الأهالي وفي ذاكرتهم رمز الدشرة وذكرى الجد الموريسكي الأول المورو.

تجمع خلق كثير من رجال القرى والمداشر القريبة وشبابها، وفي يوم واحد أعادوا تلبيس جدران المسجد والأرضية، ودعموا السطح بقشرة إسمنتية جديدة تحسُّبًا لأمطار الخريف التي على الأبواب. جالسًا على كيس إسمنت كنت أراقب الحركة الدؤوبة التي يقوم بها أهالي قرية قصر المورو والقرى المجاورة. أحصي ملامح الشبه بين والدي وجدي، وأحاول أن أحدد الاختلاف بينهما دون جدوى.

صلى الجميع صلاة تحية المسـجد المـرمم، ثم أغلقـوه بالمفتاح وعادوا إلى بيوتهم ويوميات حياتهم العادية في انتظار العودة إليه في رمضان القادم لصلاة التراويح ولأداء صـلاة العيدين.

4

ذئب السياسة وخروف السذاجة!

حينما كانت الحرب التحريرية على أشدها بين جيش التحرير الجزائري وجيش الاستعمار الفرنسي، وجد عمي إدريس نفسه، وهو في باريس بين عمله المتمثل في تلصيق الأفيشات والنساء والبارات والاجتماعات، يغرق في النقابة شيئًا فشيئًا وفي السياسة أيضًا؛ فكان أقرب إلى أطروحة تيار الحركة الوطنية الجزائرية التي يتزعمها مصالي الحاج، التي كانت على خلاف حاد، بل على حرب معلنة، مع جبهة التحرير الوطني وجيشه. كان يواظب على دفع الاشتراكات ويحضر بعض المسيرات والاجتماعات، وقد أحب شخصية مصالي الحاج كثيرًا حد العبادة لهيئته التي تشبه هيئة الأنبياء كما كان يتخيلهم طفلاً، أو الأولياء كما كانت تصفهم له أمه، وأحبه أكثر حين عرف بأن زوجته السيدة إيميلي

بوسكان Emilie Busquant هي التي صممت وخاطت أول علم جزائري رُفع في مظاهرات تطالب باستقلال الجزائر.

لم يدرك عمي إدريس كيف سقط في جُبّ حُب مصالي الحاج، وهو الذي لم تكن همُّه السياسة ولا الصراعات بين الإخوة الأعداء. كانت رغبته منذ أن نزل بأرض الغربة أن يعود ذات يوم إلى قريته خلف مقود سيارة من نوع بيجو 403 أو 404 ينقل فيها سكينة زوجته وأبناء وبنات قرية قصر المورو، ويتجول بهم في الأماكن البعيدة، ويذهب بهم حتى مدينة تلمسان ووهران والدزاير و...

لمصالي الحاج تأثير غريب على كل متحدث إليه، فمن ملامح وجهه يسطع نور خاص، وفي مشيته وحركات يده اليمنى وهي تمسد على لحيته الطويلة، لحية الأنبياء والدراويش وشيوخ الطرق، جاذبية لا تشبهها جاذبية.

رجل الكاريزما.

رجل ما بين الروحانية والسياسة!

رجل ما بين ذئب السياسة وخروف السذاجة!

على جدران غرفته الصغيرة التي وضعتها شركةُ الإعلانات التي كان يشتغل لديها تحت تصرفه مقابل كراء شهري رمزي، ألصق عمي إدريس عشرات من صور الزعيم مصالي الحاج، وهو يمشي مشيته الخاصة، وهو يخطب في

حشد كبير في ملعب رياضي، وهو يتحدث إلى أحد المواطنين البسطاء، وهو في شوارع باريس بلباسه التقليدي الجزائري، أو في جامع تلمسان العتيق، مع زوجته أو مع ابنته.

مع أن عمي إدريس لم يكن بمستوى تعليمي عالٍ، إلا أنه وجد عملا قارًّا لدى شركة للإعلانات، إذ كان يقوم بمهمة إلصاق صور الإشهار على جدران مداخل محطات المترو، وعلى اللوحات المخصصة لذلك في الشوارع الباريسية الكبرى، أفيشات الأفلام والمسرحيات، وشركات السفر والأدوية، والمحلات التجارية والألبسة الفصلية وأنواع الشامبوان، وأغلفة المجلات النسوية والمجلات السياسية، وإعلانات المهرجانات والحفلات الموسيقية.. هذا العمل سمح له بمشاهدة عشرات الأفلام والمسرحيات والمعارض مجانًا، وهو ما زاد وعيه. كان مجدًّا في عمله، لا يتأخر دقيقة ولا يحب أن يسمع ملاحظة سلبية من قبل رؤسائه على عمل يقوم به، كل شيء متقن، وهو ما جرّه إلى الانخراط في النقابة التي فيها كل الجنسيات، من الفرنسيين والبرتغال والإسبان والمغاربيين والأفارقة.

في بضعة أيام، بل في الشهور الأولى، استطاع عمي إدريس التمكن من إتقان الفرنسية، ثم شيئًا فشيئًا بدأ يتحدث بها بطلاقة، حتى أتقنها ودون لكنة. وحين أتقن الفرنسية بدأ

يفكر في زيارة بيوت المتعة. أول شيء توصلك إليه لغة جديدة تتقنها هي أحضان امرأة من بلد هذه اللغة. إذا فزت بجسد امرأة فاعلم أنك تتحدث لغة أهلها بشكل مثير، هكذا بدأ يتردد على أحياء كثيرة المولان روج وباربيس وميزان بلاش و.. وبالموازاة مع متعة النزول إلى المواخر وشقق المواعيد عرف شرب البيرة المنعشة، وحين أعجبته البيرة انتقل إلى النبيذ ثم الريكارد ثم الويسكي.. هكذا بدأت باريس تتعرى له، لم تعد تخيفه لا شوارعها ولا ناسها ولا غرباؤها ولا نقابيوها.

حين نام لأول مرة على سرير امرأة فرنسية ومارس معها الجنس تذكر معلمته في مدرسة الراهبات بقرية قصر المورو، وشعر وكأنما فُتحت أمامه أبواب باريس كلها. اللغة قطار سحري إلى جسد المرأة. كان ذلك قبل اندلاع الثورة ببضعة أشهر. كان يركب المرأة الشقراء وكأنه على قمة برج إيفل، يركب باريس كلها ومن علوها العالي يطل على العالم منتصرًا، يسكنه شعور يشبه الانتقام من فرنسا التي استعمرت بلاده قرنًا ونصف قرن تقريبا. المرور إلى جسد المرأة الجميلة هو تأشيرة المرور إلى المدينة التي قد يستعصى عليك اكتشافها، والتي تعاند في الاستسلام. المدن بنسائها، وفك لغز المدينة يبدأ من فك أزرار الألبسة الداخلية لامرأة تقيم بها وتنتمي إليها.

ظل عمي إدريس يتردد على الماخور نفسه لشهور عديدة، مرتين كل أسبوع، الأربعاء والسبت، وهو ما جعله يرتبط بعلاقة خاصة مع إحدى النزيلات، نزيلة الغرفة رقم 23 والتي اسمها كوليت. كانت رقيقة معه، شرقية التصرف، يحدث أن يزورها يتمددان عاريين على السرير، يفرغ ما في قلبه من شعور بالوحدة والخوف على البلد ومأساة الحرب التي تطحن الأطفال، يظلان لوقت هكذا جنبًا إلى جنب يحدقان في السقف ويتحدثان، ثم ينصرف دون أن يمسها. كانت تستمع إلى شجونه بعمق وبقلب خفاق مما جعله يرتبط بها أكثر فأكثر، وينتظر الساعة التي يلتقي فيها بها. ذات زيارة فتحت له قلبها الجريح، وأسرَّت له بعد أن أصبح زبونها الدائم والمفضل والمتميز، تنتظره هي الأخرى بشغف وبإحساس غريب، بأنها جزائرية مسلمة ومن قرية الطاهير بالقرب من مدينة جيجل، واسمها الحقيقي ليس كوليت كما تعود أن يناديها بل خديجة. مع ذلك فقد وجد فيها حنانًا أكثر، واعترافها له قرَّبها أكثر وأكثر. كان يشعر بأن بعض مفردات لهجتها المحلية، يحدث هذا حين يتذكران البلد، تحيل إلى منطقة الغرب الجزائري، لهجة أهل مدينة الغزوات وقرية قصر المورو، وأن اسمها قد لا يكون خديجة.

لقد أصبح ينتظر ساعة الذهاب لزيارتها على أحر من الجمر، بشكل دوري، كل أربعاء وسبت، وقد استأنس لها وأصبحت جلساتها تخفف عنه وحدته وقلقه الذي بدأ يتصاعد مع وصول الأخبار عن الثورة وشهدائها ومجاهديها الأحرار، شيئًا فشيئًا، يومًا بعد آخر، بدأت تشاركه حديث الثورة، ثم أصبحت هي الأخرى تكشف له عن انشغالها وقلقها على مصير عائلتها، لتعترف له أخيرًا بأنها تدفع اشتراكات شهرية للثورة، وأنها تملك بطاقة انخراط في صفوف الجبهة، وأنها أيضًا تشتغل عينًا وأذنًا للثورة في هذا الماخور؛ فكثير من الشخصيات الفرنسية العسكرية والسياسية والإعلامية تزور المكان، فتسمع منهم الكثير وتوصله إلى الرفاق في اليوم الموالي. كان سعيدًا أن يجد في كوليت أو خديجة أو..، لا يهم الاسم، هذا الحس التحرري وهذا الموقف الوطني الشريف.

ذات مساء، كعادته، وهو يدق باب غرفتها في حي بيغال، حين أدركت أنه هو الطارق، أغلقت الباب بعنف في وجهه، من وراء الباب، أمرته أن يمضي في سبيله وأن لا يفكر في العودة نهائيًّا إلى هذا المكان. انسحب حزينًا دون أن يعرف السبب. اختفى لفترة شهور لكن حنينًا شده إلى خديجة أو كوليت فنزل لزيارتها يومًا، هذه المرة إشفاقًا عليه فتحت له الباب وأطلقت جملة واحدة في وجهه وهو واقف على العتبة: "رأسك مطلوب،

عليك أن تختفي. لقد طلب مني مسئولو جبهة التحرير الوطني هنا بباريس أن أغتالك، أنت من جماعة مصالي الحاج".

عنف الثورة في كل مكان، في المدن والقرى الجزائرية، وقد وصل حتى شوارع باريس ومقاهيها. أخبار البلد تغطي الصفحات الأولى للجرائد وعلى جميع أمواج الإذاعات، أعداد الشهداء المتصاعد، لجوء سكان قرية قصر المورو والقرى الحدودية الأخرى إلى ما وراء الحدود والعيش في مخيمات اللاجئين بإشراف الصليب الأحمر والمنظمة الدولية لإغاثة اللاجئين، تقاتل الإخوة في شوارع باريس والأحياء والمدن المحيطة بها، في سان دونيس مونت لاجولي وأرجونتاي وكليشي سو بوا وغيرها.. ما بين مؤيد لجبهة وجيش التحرير من جهة ومؤيد للحركة الوطنية الجزائرية التي يقودها الزعيم الكاريزماتي مصالي الحاج من جهة ثانية.. كل هذا العالم المتوتر جعل عمي إدريس يغرق في البوليتيك وهو يرتاد المقاهي الباريسية التي يؤيد غالبية روادها الحركة الوطنية. هكذا وجد نفسه يدفع الاشتراكات للحركة المصالية بانتظام، لتكلفه القيادة الباريسية للحركة لاحقًا بجمع الاشتراكات من المنتمين للحركة ومناصريها في المدن الفرنسية الأخرى في الشمال وفي الجنوب وفي الشرق والغرب، فها هو في مرسيليا اليوم وغدًا في سترازبورغ وبعد غد في لِيلْ وبعدها في ليون أو سانت إيتيان..

كان حريصًا على كل فرنك يجمعه، أمينًا لا يمس فلسًا واحدًا من مال الاشتراكات، كل فرنك يدخل خزينة الحركة بالتدقيق والتوثيق. ذات مساء، وحيدًا في غرفته ممددًا على سريره، وبعد أن رتّب دفاتر الاشتراك وأحصى ودقق ما جمعه من مال في رحلته إلى ليون، تناول كأس ريكارد ثقيل العيار، ثم كأسًا ثانية. شده حنين وسكنه شوق جارف إلى قرية قصر المورو وإلى ناسها وغبار حصير مسجدها وماء بئرها المنعش الذي لطالما شرب منه مسقيًّا في سطل كبير في يوم صيفي ساخن جهنمي. نظر إلى صورة ملصقة على الجدار المقابل، صورة للزعيم مصالي الحاج واقفًا بكل جلاله إلى جانبه ابنته جنينة. دقق النظر طويلاً في الفتاة الجميلة؛ فشعر بشيء غريب يسكن قلبه. على التو سكنته، دخلت قلبه، من لحظتها أصبح كلما دخل غرفته سرقته تلك الصورة وأثارته تلك الفتاة الجميلة المشتهاة. مع مرور الأيام، والحرب على أشدها، كان يتساءل بنوع من السخرية: هل سقطت في حب هذه الفتاة، أم في أفكار أبيها الزعيم؟

الثورة تستعر، هناك في الضفة الأخرى من البحر، تشتعل نارها أكثر فأكثر في الجبال والمداشر والقرى والمدن، تأكل الأخضر واليابس، والإخوة، هنا، يتقاتلون في ضواحي باريس وفي المقاهي بين مؤيدين لجبهة وجيش التحرير وآخرين

للحركة الوطنية الجزائرية (MNA)، الصحف الفرنسية تكتب عن الصراعات بين الأعـدقاء، صـراعات وصـلت حـد التصفيات الجسدية، وعمي إدريس في حيرة من أمره، يجمـع الاشتراكات لصالح الحركة الوطنية، ويقضي ليله يقابل صورة جنينة ابنة الزعيم، ويفكر في أخيه الذي التحق بالجبل مجاهدًا في صفوف جيش التحرير وفي أسرته التي اضطرت للـهجرة والعيش في مخيم اللاجئين على الحدود، ويفكر في كوليت التي كلفت بقتله وترددت: هل هي الخيانة أم هو الحب؟

يستيقظ عمي إدريس على كابوس مرعب، قفـز مـن سريره، تقيأ ما ببطنه، شرب كأس ماء بارد، فتح النافذة لهواء منعش، سحب كرسيًّا وجلس بالبلكون حتى مطلع الشمس، أعد فنجان قهوة، وقبل موعد ساعة العمل هـاتف رئيسـه ليعتذر له عن الالتحاق بالعمل لوعكة صحية طارئة أصابته، عاد ليتسطح فوق سريره وهو يستعيد تفاصيل الكابوس:

"يُنادى على أخي عبد البر، الذي التحق بصفوف جيش التحرير الوطني. رأيته في لباسه الكاكي، يحمل قطعة سـلاح بلجيكية الصنع. بدا لي في الحلم أطول من طوله! الحرب تزيد في طول الثوار وتنقص من ألسنتهم! يحضر أخي عبد البر أمام قائده الذي يجلس تحت شجرة خروب عتيقة، يرتدي جلابة صوفية ويضع إلى جنبه سلاحه، من حوله يجلس مجموعة من

معاونيه في بزّاتهم العسكرية، كلهم شباب لا يتجاوز عمر الواحد منهم العشرين أو أكثر بقليل. أدّى أخي التحية العسكرية للقائد، ردَّ عليه هذا الأخير بمثلها بعد أن وقف مستعدًّا له ومثله فعل الحاضرون، دون لف أو دوران قال القائد بلغة عربية فصيحة، قريبة من الفصاحة الأزهرية: "لقد اجتمع أعضاء محكمة الثورة في جلسة علنية تداولوا فيها قضية انتساب أخيك المدعو إدريس المورو إلى صفوف خصومنا المنضوين تحت لواء ما يسمى بتنظيم الحركة الوطنية (MNA) الذي يقوده الخائن مصالي الحاج، بل ثبت كما تقول التقارير التي وصلت إلى قيادة الولاية السابعة بباريس بأن المدعو إدريس المورو قد كُلف بجمع أموال الاشتراكات التي يدفعها مناصرو هذا التنظيم الخطير على وحدة الثورة، وعليه، وبعد التحقق من أفعال المتهم والوقوف على صحتها ودقّتها، فقد قررت محكمة الثورة، وبإجماع أعضائها، بالحكم بالإعدام على المدعو إدريس المورو. وقد أوصت المحكمة في ملحق خاص بأن من يقوم بتنفيذ عملية القضاء على هذا الخائن لن يكون سوى أنت، الأخ عبد البر المورو؛ لأنه يثق بك وقد تصل إليه بسهولة. لقد حاولنا تصفيته عن طريق مناضلة تشتغل في صفوف الجبهة بباريس بحي بيغال، لكنها لم تتمكن خوفًا من اكتشاف أمرها من قبل الشرطة الفرنسية. وعليه

فإننا نبحث عن ترتيب لرحلتك بعد الحصول لك على جواز سفر خاص عن طريق إسبانيا. سنخبرك بذلك لاحقًا. انتهى قرار محكمة الثورة". أدَّى أخي التحية ثانية للقائد والأعضاء المحيطين به، ردوا التحية ثم انصرف وانصرفوا".

نظرتُ إلى سقف الغرفة، قبَّلت العلم الجزائري سبع مرات، نظرت إلى صورة الزعيم مصالي الحاج فوجدته كبيرًا، ولا يمكنه أن يكون خائنًا كما قال القائد في جبهة التحرير. إننا جميعًا نحب الجزائر ولكن بطرق مختلفة وجميعًا نذهب إلى الدفاع عن استقلالها المقدَّس من خلال مسارات مختلفة أيضًا. لا يمكن لأبي الحركة الوطنية الجزائرية أن يكون خائنًا وهو الذي قضى حياته في الدفاع عن البلد؛ مما جرّ عليه الحكم بالسجن لسنوات وسنوات أخرى في المنافي. لا أحد وصيٌّ على الثورِة، إننا جميعًا حطب الثورة.

إني أحب أخي عبد البر وأحب الجزائر.

إني أحب الثورة وأحب مصالي الحاج.

إني أحب خديجة؟ أو كوليت، وأحب أيضًا جنينة وزوجتي سكينة.

أحب شرب ماء بئر قرية المورو، وأحب شرب البيرة والريكارد..

ثم بكى.

5

عمتي ميمونة.. وحدها!

امرأة غريبة الأطوار، شارفت على الثلاثين لكنها تتحرك بطاقة مراهقة في الرابعة عشرة، فاتنة وذكية وجريئة، لسانها سليط كأنما قُدّ من فحيح أفعى، لسان يمنح العسل مدرارًا والسمّ على السواء، وفي اللحظة نفسها، لا تفارق الضحكة فمها ولا الابتسامة ملامح عينيها الواسعتين الجميلتين المُغْريتين، عمتي ميمونة ليست أختًا شقيقة لأبي عبد البر ولا لعمي إدريس، فهي أختهما من الأب فقط.

حدث أن غضبت جدتي تامولت أم والدي وعمي، التي كانت تفتخر باسمها أمام نساء قرية قصر المورو والقرى والمداشر في الأنحاء، وتامولت معناه المرأة شديدة البياض، وكانت تتباهى بلون بشرتها، لا تتعرض لشمس ولا لريح أو غبار. كان سبب غضبها غيرة من أمي التي كان يعاملها

جدي بطريقة استثنائية تفضيلية، وحين غضبت غادرت البيت بدون إذن من جدي وذهبت إلى أهلها، وحين عاد جدي و لم يجدها وهو الذي كان يحبها حب قيس لليلى، غضب وأزبد وأقسم أن يطلقها بالثلاث، وهو ما حصل بالفعــل، علــى الرغم من محاولة تهدئته من قبل أمي وزوجـــة عمـــي. وفي الأسبوع التالي جاء بزوجة ثانية، دخل بهـــا دون حفـــل أو ضجيج، وقد استغرب سكان الدشرة من أبنائـــه وأحفـــاده تصرفه هذا، ضحك الجميع من رد فعل جدي وهو المعروف بحكمته ورجاحة رأيه. علق كثير من سكان القرى بمجرد أن سمعوا خبر زواج جدي بما يلي: "النساء تجوف الرأس مـــن مخه.. قد يكون العقل ثقيلاً والقلب خفيفًا في جوف واحد". لكن، وبمرور أربعين يومًا، شوهد جدي وهو يبكي غيـــاب جدتي و لم يكن يخفي ذلك، وقاطع فراش الزوجة الجديدة بعد أن زرع في أحشائها ثمرة ستكون عمتي ميمونة، التي ولدت عند عائلة أمها بعد أن عادت الزوجة الثانية إلى بيت أهلها، و لم يمضِ وقت طويل حتى طلب جدي اســترجاع زوجتـــه الأولى تامولت ليفاجأ بأنها قد تزوجت هي الأخرى، بعد أن قضت عدتها، كما يأمر بذلك الدين والعادات، لكـــن أيـــام جدتي لم تطل مع زوجها الثاني لتعود إلى بيت أهلها ثم تعود لاحقًا إلى بيت جدي، بيتها الأول.

ولدت عمتي ميمونة في أحضان عائلة أمها بين أخوالها وخالاتها، ولم تبلغ الثالثة من عمرها حتى أعادوها إلى جدي حمديس محمولة في عين خُرج على ظهر بغلة يسوقها أكبر أخوالها عبد النبي السنيترا، الذي كان موسيقيًّا مشهورًا يعزف على العود والناي، وله صوت مثير. ويقال إنه طبع أسطوانة 33 لفة وعلى غلافها وضع صورته مبتسمًا جالسًا على زربية فارسية بكامل شواربه الطويلة، وأمامه راقصة حافية القدمين بلباس شفاف شبه عارٍ تؤدي رقصة البطن! ويُروى أنه هو من كان وراء تزويج أُخته من جدي، إذ كانا صديقين حميمين، وكان جدي معجبًا بفنه وبصوته المثير، وكان لا يتردد في دعوته كلما سنحت الفرصة لترتيل القرآن بصوته الفريد الذي كان محطَّ إعجاب الجميع ممن يستمع إليه.

تولت جدتي تامولت تربية الطفلة بعد أن أقامت لها حفلاً في اليوم السابع لوصولها قرية قصر المورو ومنحتها اسمًا جديدًا، هو ميمونة، على اسم إحدى الجدات الأُوَل التي يقال إنها جاءت مع جدي مؤسس القصر الذي أقيمت عليه قرية المورو، والذي جاء هاربًا من بطش الملكة إيزابيلا التي طردتهم بعد سقوط غرناطة. يقال إن ميمونة جدتنا الأولى كانت يهودية العقيدة بربرية اللسان قشتالية الجمال، وكانت امرأة

خير وصلاح وحكمة، قادرة على مداواة المرضى من أهل القرى الفقراء مجانًا، وكان يطلبها في ذلك أيضًا بعض رؤساء القبائل وقادة الجيش، وكانت قادرة على شفاء المرضى، تعالجهم دون مقابل مما حبَّبها للعامة والخاصة، وقد دُفنت في مقبرة المسلمين إلى جانب جدي المورو بن علي الذي كان قبره أول قبر في مقبرة الدومة العائلية، ولا يزال قائمًا حتى الآن.

كبرت الطفلة ميمونة بين أسرة مفتوحة على الإخوة والأخوات والعمات والأعمام والأصهار والأحفاد والحفيدات، بين الأزقة الضيقة والمداخل والمخارج المثيرة في قرية قصر المورو، وتحت ظلال أشجار الحوش الرئيس من تين ودالية وبرقوق وخوخ ولوز ومشمش كانت تصنع منه جدتي كل سنة كمية معتبرة من مربى يسيل له اللعاب، وكنا نغافلها ونغمس أصابعنا في البوقال الزجاجي أو الجرة الطينية التي يخزن فيها، في غفلة منها كنا نستهلك منه كثيرًا ولا نشبع من حلاوته.

كانت بمجرد أن تنتبه أن الكمية قد نقصت بشكل مثير تسرع إلينا فتقبض على أذني وتسحبني حتى أسفل الخزانة التي بها البوقال، وقد نقصت كميته حتى النصف؛ فأقسم بالله والرسول الأعظم وبرأس جدي وبرأس جدتي الأولى الحكيمة

ميمونة التي لها ضريح بقبة لا يزال يزار حتى الآن، ولها موسم يقام بالخيل والبارود ونحر الأضاحي مرة كل سنة، في السابع عشر من أوت، أقسم لها ثلاثًا بأنني لم أذق من المربى، وأعود في اليوم التالي كالقط الذي يراقب سمكة في مقلاة أو في سلّة، أركب ظهر أخي الأكبر مجيد وأسحب البوقال، وكما في اليوم السابق نغمس أصابعنا ونلحس بلهفة بعد أن نلاحظ أن الكمية قد تجددت فنفرح لذلك فرحًا.

كنت أحب عمتي ميمونة لأنها هي الوحيدة التي كانت تخفي عن جدتي تامولت أننا نحن من يقف وراء قضية تناقص كمية المربى في البوقال الزجاجي أو في الجرة الخزفية، وكانت تقسم بأعظم الإيمان أنها لم ترنا ونحن نقوم بفعلتنا، وهي التي كانت تنبهني من مغبة السقوط كلما صادفتني واقفًا على ظهر أخي كي أصل إلى الخزانة العالية وأسحب الكنز المشمشي.

كبرت عمتي ميمونة ونسي الجميع الاسم الذي جاءت متدثرة به كمعطف من صوف من عند أهل أمها وهو "زليخا" ليعوض وبشكل نهائي بميمونة. كنت أحب هذا الاسم كثيرًا، أجد فيه نغمة وحلاوة لا تضاهيه سوى حلاوة مربى المشمش من صنع يدي جدتي المهووسة بلون بشرتها البيضاء الناصعة، وبنظافة جسدها وبتربية دجاجها والاعتناء بشجيرات المشمش. وكانت تصرُّ على جمع نواه لتصنع منها

خبزًا غريبًا يقال إنه لم يأكل منه أحد سوى جدي؛ لأن لـــه مفعولاً جنسيًّا غريبًا.

جدتي امرأة غيورة. لقد كانت تغار حتى من اسم ميمونة الذي أطلقه جدي على ابنته هذه والذي وافقـــت عليـــه في البداية، بل ربما هي من اقترحته. كانت تعتقد بأنه اسم لامرأة قد تدق باب بيتها يومًا لتتسلل إلى فراش جدي حمديس على سنة الله ورسوله، امرأة شابة جميلة من أصول إسبانية، واحدة من الحفيدات المنسيات من بنات عرب وبربر هربـــوا مـــن قصورهم وديارهم على عجل. لهذا قررت ذات صـــباح أن تمحو اسم ميمونة من على لسانها، لتستبدله بـــ "اليهوديـــة"، هي الوحيدة التي كانت تناديها بهذا الاسم-الصـــفة مـــع أن جدي كان ينزعج لمثل هذا النداء؛ لأنه كان يشعر بأن فيـــه بعض الإيحاء بكراهية أبناء عمومتنا اليهود وواحدة من جداته الأوَل. وبالفعل كانت جدتي تكره كل شيء له علاقة بالنساء اليهوديات، لا كراهية في دينهن بل لأمر آخر مختلف تمامًـــا. إن كراهيتها لليهوديات سببه جمالهن، وهن بذلك قـــادرات على خطف الرجال من أية ملّة كانوا، هي ليست كراهية بل غيرة، لم تكن عمتي تنزعج من أن تُنادى باسم "اليهوديـــة" على لسان جدتي تامولت، بل كانت سعيدة لتعدد أسمائهـــا، فحين يسمح لها جدي حمديس بزيارة أمها، يحدث هذا مرتين

في السنة في عيدي الفطر والأضحى، تعود لتسمع اسمها القديم "زليخا" بين أخوالها وخالاتها، وحين تكون في باحـــة قريـــة قصر المورو يناديها الجميع بـــ "ميمونة"، وعلى لسان جدتي هي "اليهودية". كان تضحك وتفرح من تعددها هذا.

عمتي جمعُ مؤنث!!

كانت جدتي تراقب جسد ميمونة يومًا بعد يوم، رمضان بعد رمضان، سنة قمرية بعد أخرى، تدقق في انتفاخ صدرها، تقيس حجم نهديها بعينيها كل صباح. إنها في انتظار دائـــم، على أهبة التدخل كما رجال المطافئ، انتظار يـــوم إرســـالها إلى سرير زوج يريحها من ذكرى لا تريد أن تتذكرها. تنتظر على أحر من الجمر ساعة خروجها من قرية قصر المورو حتى ولو للعيش مع ضرة أو ضرتين، المهم كيفية الخلاص منـــها، وفي أقرب وقت، ودون فضيحة قد تلعلع في الدشـــرة ذات ليل.

هذه الفتاة نار!

قنبلة موقوتة!

فتنة!

ما إن بلغت الرابعة عشرة من عمرهـــا حـــتى تهافـــت الخطّاب عليها من شباب القرى المجاورة، بل إن بعضهم جاء يطلب يدها من مدينة تلمسان! كانت جدتي فرحـــة لأنهـــا

سترتاح وبسرعة من وجودها المنغّص للذاكرة، وفي الوقت نفسه غيورة من هذا الإقبال والتهافت على فتاة لا تناديها إلا بـ "اليهودية". استغربت جدتي هذا الحظ الذي تمتلكه هذه "اليهودية" ذات الأنف الطويل، على حد قولها، وهو حظ أثار أيضًا غيرة الكثيرات من البنات اللواتي في عمرها أو أكبر منها و لم يتقدم أحد لطلبهن للزواج.

كانت جدتي تامولت تنظر إلى عمتي قائلة، مرددة الجملة نفسها صباحًا ومساء، كلما صادفتها وقد أطلقت سالفها الطويل منسدلاً على ظهرها: "بهذا الجمال، وهذا الشعر المسدول، والله، يهودية ونص!". وترد عمتي بسخرية وهي تهز خلخالها بغنج: "خمسة وخموس علي""

مع ذلك، بينها وبين نفسها، كانت تريد لها زوجًا يريحها وتكون معه سعيدة؛ حتى لا تراها يومًا وقد جمعت أدباشها وعادت لتجلس عند عتبة باب الحوش، تنش الذباب وتمشط شعرها وتعد على أصابعها أسماء الرجال الذين في عمر الزواج، وتعد ما بقي لها من أيام على العادة الشهرية القادمة، وتقرص الصبيان من أفخاذهم والبنات من نهودهن ومؤخراتهن، وتمشي بطريقة مغرية كي يبعث الخلخال في قدمها موسيقى يسمعها القاصي والداني، الشيخ والشاب، الأعمى والأصم.

ومن بين من طرق بيت جدي من الخُطّاب شيخ تقـــي، ورع، عالم في اللغة العربية نحوًا وصرفًا، وبحـــر في الـــدين، يُعرف عنه في الأنحاء بأنه مقرَّب إلى تيـــار جمعيـــة العلمـــاء المسلمين التي كانت تحظى بكثير من الاحترام في المنطقة، دقّ باب جدي طالبًا يد ميمونة لابنه عبد الحميد. فرحت جدتي لهذا العريس، وقد طلبت من جدي حمديس الموافقة فـــورًا، دون شروط كثيرة؛ فالبنت بكل ما وُهبت من جسد جميـــل ولسان حلو فتنة، وقد بدأت تثير كثيرًا مـــن الحكايـــات في جلسات حمّام النساء وفي مجالس الشبان، وتزوبـــع عقـــولهم وتفتح شهية الكلام والمغامرات، وربك أعلم بما ســـتأتي بـــه الأيام. وفي الوقت الذي تساهل جدي مع والد الخطيـــب في مسألة قيمة المهر المادية، وتغاضى عن شرط الاســـتقلالية في العيش الزوجي؛ فقد فرض هذا الأخير شرطًا علـــى جـــدي قائلاً: "أقبل منكم كل شروطكم، ولكنَّ لي شرطًا واحدًا في المقابل، هو: تغيير اسم الفتاة، وهو شرط أساسي لزواجها من ابننا عبد الحميد الذي سميته على اسم مؤسس جمعية العلمـــاء المسلمين الشيخ عبد الحميد بن باديس. إن "ميمونة" اســـم يطلقه اليهود على بناقم، وعيب أن يدخل هذا الاســـم إلى بيت ابننا الذي سميناه على اسم الشيخ عبد الحميد بن باديس مؤسس جمعية العلماء المسلمين المباركة."

لم يعترض جدي على طلب تغيير اسم عمي، بل أثار لديه هذا الشرط استغرابًا! فميمونة اسم لواحدة من زوجات النبي محمد: ميمونة بنت الحارث، وهي أم المؤمنين وآخر زوجات الرسول كما تقول كتب السيرة.

بعد أسابيع قليلة وجدت عمتي ميمونة نفسها تلبس اسمًا جديدًا آخر هو "فاطمة الزهراء"، وهو اسم ابنة الرسول عليه الصلاة والسلام وأحب الناس إلى قلبه وزوجة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه كما قيل لها، ولم يثرها ذلك لا إيجابًا ولا سلبًا، وهو اسم المرأة التي يقال عنها، والله أعلم، أنها لم تكن تحيض، وأنها كانت تلد من جنبها، وليس من المكان الذي تضع منه جميع الأمهات أبناءهم وبناتهم. وقد قبل جدي دون تردد اقتراح تغيير الاسم، وزوّجها على سنة الله والرسول باسم "فاطمة الزهراء"، الواقع أن جدي لم يستقبل اسم فاطمة الزهراء بارتياح، فميمونة اسم جدته الأولى المرأة الحكيمة التي تقام لها سنويا وَعْدةٌ كبيرة. أما جدتي تامولت فقد غضبت قليلاً من شرط تغيير الاسم؛ لأنها ولأول مرة حين نادتها باسمها "ميمونة" لكي تخبرها بموافقة والدها على زواجها، صرخ فيها جدي بأن اسمها لم يعد كذلك، بل هي من الآن فصاعدًا "فاطمة الزهراء". ردت عليه جدتي بصوت خافت مستنكر: "من يهودية إلى بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام، هذه امرأة غريبة وعجيبة".

وكالعادة هزت عمتي ميمونة خلخالها في قدمها بغنج وقالت: "خمسة وخموس عليّ".

حين سمعتْ عمتي بشرط تغيير الاسم الذي اشترطه والد خطيبها، والذي دونه لن يقبل بزواج ابنه بفتاة تسمى ميمونة؛ سقطت في هستيريا ضحك، ثلاثة أيام لم تتوقف عن الضحك. يقال إنها تبولت في سروالها حين علمت بذلك، وخرجت في الباحة تداعب الكبار والصغار والنساء والرجال: "أنا من اليوم فصاعدا (فاطمة الزهراء). أيها الأولاد ويا أيتها البنات، أنا فاطمة الزهراء التي يقال عنها إنها لم تكن تلد من هذا (وتشير إلى ما بين فخذيها)، وأنا التي كنت أتمنى أن أشبع من قضيب خشن بحجم وتد الخيمة أو جذع شجرة مسنة، وأنا التي كنت أنتظر أن أتألم كما النساء جميعًا في كل ولادة، وأنا الراغبة في أطفال كثر من الذكور والبنات". ثم تضحك وتضحك وتضحك حتى تسقط على قفاها: "أنا فاطمة الزهراء، يا أبناء قرية قصر المورو".

بعد أن وافق جدي على خطوبتها وبدأ التحضير لزواجها، قررت جدتي هي الأخرى أن تناديها باسمها الجديد "فاطمة الزهراء". وكانت "عمتي" ترد على كل من يناديها بهذا الاسم ساخرة بأنها بدأت تتبول من جنبها، وأن فرجها قد أغلق نهائيًّا بسحاب من الذهب لا يصدأ، سحّاب وضعه

جبرائيل، وأن العادة الشهرية انقطعت عنها تمامًا. كانت تقول ذلك وتضحك وتضحك وتضحك حتى تغمر الدموع عينيها الكبيرتين الجميلتين.

وفي الليل، كانت تخاف من أن يعاقبها الله على هذا الكلام البذيء الذي تطلقه حيال اسم حملته ابنة الرسول عليه الصلاة والسلام، وحملته من بعدها نساء كثيرات مؤمنات تقيات ومحترمات. فكانت قبل أن تنام تستغفر الله وتقرأ بعض الدعوات، ولكنها في الصباح تنسى كل ذلك وتعود إلى حالتها وإلى كلامها الفاحش الجريء.

قبل يوم واحد من الانتقال إلى بيت زوجها عبد الحميد على ظهر بغلة بيضاء، هي بغلة عمي إدريس التي اشتراها وعمرها عام واحد وظلت في بيته حتى ماتت، وبكاها بدمع غزير ودفنها كما يدفن بني البشر، مساء ذلك اليوم أبانت عمتي ميمونة على خلخالها الفضي ذي الشناشن، الذي أهدته إياها أمها، رفعت قليلاً عباءتها كي تكشف عن ساقها المفتول، رقصت بجنون أمام الملأ على رنة الخلخال قبل أن تركب ظهر البغلة، ومن يومها قررت أنها لن تسحبه من حول قدمها، سترحل به إلى قبرها.

كنت أحبها حين تضحك وحين ترقص وحين تكذب وهي تخفي عن جدتي سرقتنا لمربى المشمش المخزن في البوقال

الزجاجي أو الجرة الخزفية ذات الرسومات البربرية الساذجة، رسومات طواويس وحمام وأفاعٍ وعنزات وحلزون وزيتون وتين.

عمتي ميمونة التي حملت ثلاثة أسماء وجدت نفسها زوجة لرجل دين غريب الأطوار، يتوضأ الوضوء الكبير كلما هم لمضاجعتها، ويتوضأ ثانيًا بالكبير كلما نزل من شهقة الشبق من فوق جسدها الطري الناعم. وكانت سعيدة لأنها لم تفقد عضوها الحميم ولم يقفل بسحاب من ذهب يجيء به جبرائيل، ولم تحرم من المتعة التي كانت تحلم بها في فراش رجل، وأن اسمها الجديد لم يؤثر على جسدها، وأنها لا تتبول من جنبها بل من المكان الذي كانت تتبول منه باسم ميمونة. ومنذ اليوم السابع وجدت نفسها تنادي زوجها بسيدي الشيخ، لم تسأل عن اسمه الحقيقي على الرغم من أنها سمعت جدي حمديس يقول لجدتي وهو يعظم من شأن زوجها: "اسمه على اسم رئيس جمعية المسلمين، شيخ عظيم الشأن". ولم يكن يهمها ذلك بالمطلق، كانت ترى فيه، ومنذ الليلة الأولى، الرجل الذي تنتهي علاقتها به مباشرة بعد مغادرته فراش الجنس.

كان كبيرًا في السرير.

كانت تحبه في السرير.

تنتظره للسرير.

إله السرير.

تشهد عمتي ميمونة بكثير من الفرح بأن سيدي الشيخ كان غزير الشهية الجنسية، وكانت تكبر فيه ذلك وتنتظره النهار كله لأجل ذلك، وهي التي كانت تحب الجنس وتتمنى أن لا تنزل فخذاها إلا لترفعهما ثانية. كانت تحلم أن تظل رافعة فخذيها نحو السقف، تحرك خلخالها ليسمعه سيدي الشيخ فيزداد هيجانه، فيخفف من ركعات صلاته أو يختصر قراءاته أو يختار ما قصر من سور كتاب الله الحكيم. كانت نار الكانون لا يُطفأ جمرها، فعلى مدار اليوم يظل منصوبًا عليه سطل ماء مملوء، يسخن على نار هادئة، ينتظر عودة سيدي الشيخ للوضوء الكبير ثم الوضوء الكبير ثم الوضوء الكبير!

لقد أنساها فراش سيدي الشيخ الساخن الشبقي أهلها في قرية قصر المورو، السرير أنساها حساب الوقت. بدت منذ الأيام الأولى متصالحة مع اسمها الجديد "فاطمة الزهراء"، لم ترفضه ولم تهتم له، ولم يمض الشهر الرابع حتى شعرت بأن شيئًا حيًّا يتحرك ببطنها، وقد زاد إحساسها برحمها المسكون من رغبتها الجنسية درجات واشتعلت نار جسدها أكثر وأكثر، وهو ما جعل سيدي الشيخ ينسى أو يتنازل مرات

كثيرة عن وضوئه الكبير حين لا يجد ماء ساخنًا فوق النـــار، ويعوض عن ذلك بالتيمم، وذلك باستعماله حجرًا يقول عنه إنه ورثه عن أبيه الذي جلبه معه من سور القدس الشريف في واحدة من حجاته السبع، حجر مبارك من سور يحيط بحـــي يُدعى حي المغاربة، ويقول إنه كلما تيمم بهذا الحجر القدسي زادت شهيته الجنسية أكثر وأكثر. وبمرور الزمن نسي عـــادة الوضوء بالماء ليعوضها بالتيمم، وهكذا خمدت نار الكـــانون ولم يعد لسطل الماء الدافئ وجود.

6

عويشة!

وُجِد عويشة عند مدخل قرية قصر المورو. عُثـر عليـه ذات صباح باكر يغط في نوم عميق ممددًا تحت شجرة التين العريقة التي يسكن النمل قلب جذعها منذ سـنين. كـان يرتدي عباءة نسائية تقليدية مطرزة بـالجوهر الاصـطناعي والعدس المتلألئ وحبات العقيق. لا أحد يعرف اسمه الحقيقي، أي سبب جاء به؟ من أي سماء سقط؟ وحين وُجد في قريتنا كان لابد له من اسم، فكان، وبنوع من السخرية من عباءته، أن أطلق عليه عمي إدريس هذا الاسم: عويشة. وبهذا الاسم عُرف وظل يحمله دون نفور أو رفض. قبل بالاسم ولبسـه كما يلبس عباءة نسائية، وظل بلباسه النسائي، وقبـل بـه الجميع على هذا الشكل الغريب، ولم يطلب منه أحد أن يغير من حاله أو من هيئته. وكان عويشة بمجرد أن يصادف امرأة

تشبهه في الطول والهيئة لا يتردد في أن يطلب منها عباءة من عباءاقا؛ فتمنحه ذلك في الحين أو تأتيه بمثل ذلك في اليـــوم التالي، بل إن بعضهن كن يعتبرن هذا الطلب من باب البركة.

لا أحد علم من أين جاء عويشة، مع أي مطر نزل أو أي ريح حملته إلينا، ولم يرد أحد من أبناء قرية قصـــر المـــورو أن يزعجه بمثل هذا السؤال، ولم يكن مستعدًّا أن يفـــتح ذاكرتـــه ويطل على ماضيه، كان يريد أن يَقبل به الناس هكذا. ولم يمضِ وقت طويل حتى أصبح جزءًا أساسيًّا من يوميات الدشـــرة، لا معنى لساكنة القرية بدون عويشة، وكأنما خلقت القرية حـــول شخصه ولأجله. مع مرور الأيام والشهور أصبح عويشة يساعد النساء في حمل الثياب الوسخة إلى نهر المالحة لغسلها، يساعدهن أيضًا في عصرها ونشرها وطيها، وفي فرك بعض الأغطية الخشنة بدعكها بقدميه الخشنتين، أو بالضرب عليها بلوح الصـــابون، وهي خشبة صنعت خصيصًا لذلك. كان يقوم بكـــل أعمـــال السخرة هذه وهو يغني أغنية واحدة لا يبدلها منـــذ أن وصـــل الدشرة، أغنية "يا ربـــي سيدي وش عملت أنا وحبيبـــي ربيتو بيدي واداها ولد الرومية" (الأغنية محرّفة). في حفلات الأعراس والولائم التي تقام في القرية كان عويشة ينتقل بين جناح النساء وجناح الرجال على السواء، يتحدث مع هذه ومع ذاك بـــدون حرج أو تحفظ، ولا أحد من الرجال أو الشبان كـــان ينـــزعج

لوجوده أو لحديثه أو ابتسامة لامرأة أو حتى لعبارة رقيقة قد يوزعها على بعضهن، وكانت النساء لا تترددن في مغازلته والتحرش به من قبيل المداعبة.

وبمرور الزمن بدأت تُنسج حول حياته بعضُ الحكايات المثيرة كمحاولة لفك لغزه، فقد روى أحدهم أنه كان متزوجًا بامرأة جميلة أحبها حبًّا عظيمًا لكن الأيام فرقت بينهما؛ إذ اختطفها منه أحد العسكريين الفرنسيين بعد أن سقط في حبها وهرب بها بعد أن أنهى مهمته العسكرية، وعاد إلى ما وراء البحر، وأن عويشة سافر حتى تلك البلاد وطاف مدنًا وأحياء ولم يعثر لزوجته على أثر، ومن يومها عاد إلى مدينة وهران ليقرر ارتداء عباءة نسائية تعبيرًا عن أنه، وبفقدان زوجته، فَقَدَ الرجولة فيه إلى الأبد.

حين نزلت أولى زخات رصاص القصف الاستعماري على القرية جوًّا وبرًّا، عمَّ الخوف والهرج والفوضى في القرية، وأُعلِنت المنطقةُ الحدودية منطقة عسكرية. بصحبة جدي شرع عويشة بهدوء وبرودة أعصاب في ترتيب مراسيم الهجرة إلى ما خلف الحدود التي لا تبعد سوى بعض كيلومترات. سار عويشة يسوق أمامه ما بقي من رؤوس قطعان المعز على رأس القافلة، متبوعة بالنساء والأطفال ثم البغال والحمر، مُحمَّلة بما خفَّ من الأفرشة والمؤونة وبعض أغراض أخرى

للطبخ والنوم. كان جدي آخر من غادر الدشرة متأبطًا بعضَ الوثائق والكتب ونسخة من المصحف التي يقال إن جده الموريسكي الأول جاء بها من الأندلس، ربما تكون تلك هي نسخة عثمان التي أرسل بها إلى شمال إفريقيا.

كان جدي وعويشة هما الرجلان الوحيدان البالغان ضمن جموع المهاجرين من النساء والأطفال دون الثانية عشرة، البقية من الشباب والرجال التحق جميعهم بصفوف جيش التحرير الوطني وجبهته. كان جدي حزينًا لأن أخاه خلدون رفض الهجرة وظل متمسكًا بالمكان، رافعًا عينيه محدقًا في ما بقِي من كتابات زخرفية أصيلة على جدار البيت الأصلي لقصر جدهما الأول المورو. عانقه مودعًا على أمل أن يعودوا ذات يوم ليجدوه في المكان.

لم تثر قيادة عويشة لعملية الهجرة أي تعليق من قبل النساء أو الأطفال، بل إن الجميع أصبح تحت إمرته، فها هو يصرخ في هذا ويعنف تلك، فعلى الرغم من أنه، ولأول مرة، يراه فيها سكان الدشرة والقرى المجاورة بهذا الجِدّ، فإن الجميع قبلوا وتصالحوا مع الدور الجديد الجاد والمسئول الذي تؤديه هذه الشخصية الغريبة، وسقطت من لسانه أغنيته التي ظل يرددها لسنين منذ أن جاء إلى القرية حافيًا مرهقًا من وعكاء سفر طويل لا أحد يعرف منطلقه.

لماذا سقطت الأغنية من على لسانه؟

وجد اللاجئون في عويشة ساعدًا متينًا يمتد إليهم للوقوف إلى جانبهم في رفع سقف خيمة، أو البحث عن حطب أو فراش أو التوسط لعلاج في العيادة الميدانية، التي نصبتها بعد أيام قلائل لوصول قوافل اللاجئين مصالحُ الصليب الأحمر الدولي والمنظمة الدولية لإغاثة اللاجئين. ولأول مرة يعرف الجميع أن عويشة هذا يتكلم الفرنسية لغة الاستعمار والإدارة، كان يخاطب الأطباء والممرضات بلسان فرنسي طليق، وهو ما جلب كثيرًا من الأسئلة الأخرى حول شخصيته الغامضة، حتى إن جدي حمديس وهو يراه يتحدث بلسان آخر اندهش له، بل أثار لديه بعض الشكوك التي ما فتئت أن تلاشت بعد بضعة أسابيع.

كان جدي يعتمد عليه في الاتصال بعناصر منظمة إغاثة اللاجئين، فهو من يقوم بتسجيل أسماء اللاجئين وأعمارهم، كان ينظر إلى الطفل فيقدر تاريخ ميلاده ثم يسجله دون العودة إلى أمه أو إلى جدي، ومرات يعطيه اسمًا من عنده. كان يشرف على توزيع المساعدات بدقة وأمانة على كل خيمة، لا واحدة تحتج أو تناقش قرارات عويشة. كان هو أيضًا من يوصل المرضى إلى العيادة ويشرح للطبيب الأجنبي شكوى المريض أو المريضة ومصدر ألمه.

اتخذ جدي له خيمة كبيرة في وسط الخيام التي نصبت بطريقة محكمة روعي فيها إعادة تشكيل نظام بيوت القرية تمامًا بتمام؛ مما سهل عليه مراقبة الجميع والسؤال بسهولة عن الغائب أو المريض أو الحائر من ذريته. نصب خيمته بجوار خيمة أمي التي تجمع أخواتي وإخوتي، وكان يقضي سحابة يومه جالسًا عند العتبة مسندًا ظهره إلى وتد يشد حبال الخيمة يقرأ في كتاب "قطب السرور"، ويضحك ويستغرب جرأة الكتاب، يستعيذ بالله ثم يضعه جانبًا ويقرأ في آخر بعنوان "تربية دود القز وصناعة الحرير الأصلي"! هل تربية بيض الحرير فن أم فلاحة؟ تساءل، وهو الذي كان مغرمًا بشكل شجرة التوت العتيقة التي تنبت على طرف البئر، تظلل أغصانها فوهة البئر لتصل حتى الماءِ في القعر فيبدو أسود. وكان كلما نظر إليها تملكته رغبة عميقة في تربية دود القز الياباني الأصيل. وكان إلى جانب قراءته اليومية في كتابيه "قطب السرور" و"تربية دود القز"، والتي تدوم ساعتين تقريبًا، ينهي قراءته بتلاوة بعض آيات من الذكر الحكيم بصوته الجميل، ثم يراجع السجل الكبير الخاص بتوزيع المساعدات على اللاجئين بالقسطاس، يساعده في هذه المهمة وبحماس ودقة عويشة، الذي منذ أن حط أهل القرية رحالهم في مخيمات اللاجئين أصبح لا يفارق جدي ولو للحظة

واحدة، لا يُرى إلا ملتصقًا به كظله الثاني، يأتيه بأخبار الداخل والخارج من المخيم، مناوشات النساء وخصام الأطفال، يحضّر له ماء الوضوء دافئًا ويرتب له فراش النوم ويهيّئ له شايًا على الطريقة التلمسانية التي يعشقها، برائحة نعناع وحشي قوي تم غرسه في مربع ترابي خاص عند مدخل المخيم منذ اليوم الثاني لوصول اللاجئين، هذا المكان العاري، لا شجر ولا نبات، مع أن جدي كان يحب القهوة كثيرًا إلا أن براد شاي من يد عويشة كان ينعش خياله ويجعل القراءة أكثر يسرًا وأوفر متعة وأغزر خيالاً.

ذات صباح اختفى عويشة عن المخيم، استغرب الناس ذلك، ولكن جدي لم يسأل عن تابعه عويشة و لم ينشغل لهذا الاختفاء، وطال غيابه قرابة الشهرين ليظهر ذات صباح آخر في المخيم وكأنه لم يغادره. لا شيء تغير فيه، وكان يرفض الحديث في أمر غيابه.

طوى جدي سر هذا الغياب وهذه العودة.

بين الفينة والأخرى، كان بعض الجنود الثوار من أبناء القرية يفاجئون نساءهم ليلاً ليقضوا بعض الساعات في أحضانهن، ثم يغادرون المضاجع قبل طلوع الفجر إلى مواقعهم على الجبال وأحراش الغابات على الحدود أو بالداخل. وفي

مجيئهم هذا المرخص من قبل القيادة تكمن خطورة كبيرة على حياتهم وعلى حياة اللاجئين من ذويهم؛ إذ لو علم جيش الاحتلال الفرنسي بذلك ما تردد في إبادة المخيم برمته، كمحاولة منه لاسكات أصوات ومدافع الثورة التي بدأت تنتصر سياسيًّا وعسكريًّا، وبشائر الاستقلال بدت تلوح في الأفق وفي الأحلام. وكان والدي يظهر كالنسر بين الفينة والأخرى، وبشكل خاطف، لا ترى منه سوى زرقة عينيه تحت ضوء الشمعة أو الكانكي كالذئب المتلهف لنهش شيء ما، وكانت أمي تغرس نظرها بين قدميها الجميلتين الحافيتين أو الغارقتين في زوج من النعل المطاطي، تنظر إليه بخفية وحياء وتنتظر متى تُطفأ الشمعة لتكون ذلك الجسد المنهوش.

حين ينزل والدي أو أي ثائر آخر على المخيم يحاط الأمر بسرية كاملة، لا أحد يعلم ذلك سوى جدي وعويشة الذي يتولى حراسة المخيم وهو في عباءته النسائية كالعادة، يظل الليل بطوله يطوف على أطراف المخيم يراقب كل حركة قد تكون غير طبيعية. لا ينام حتى يغادر الزائر المخيم ويتأكد من أنه اختفى في الغابة بكل سلام.

لقد كنت ثمرة واحدة من تلك الزيارات الليلية الخاطفة الثلاثة التي قام بها والدي إلى المخيم خلال مدة تواجدنا بمخيم

اللاجئين، وكان في زياراته تلك يظل بلباسه العسكري الكاكي وسلاحه على جنبه لا يفارقه، لا يتجرأ حتى على خلع حذائه الخشن من القدمين. كان يتمدد إلى جانب أمي بعدته ولباسه، يباشرها ثم يرحل قبل الفجر.

من هذه اللحظة العسكرية الليلية الخاطفة جئت، جئت من لحظة واقفة ما بين الحرب والحب والشبق.

7

شبه!

كلما تهامس الناس من حولي عن الشبه الكبير بين ملامح جدي وملامحي، عادوا وذكروا أيام الملجأ وسنوات المخيم البئيسة التي قضيناها تحت الخيام بين البرد والحر والغبار والخوف والفقر والانتظار.

كان جدي يحرص أن لا ينام إلا إذا تفقد واطمئن على الجميع صغيرًا وكبيرًا في الملجأ، وكان يستعين في ذلك بعويشة الذي لم يُشاهد، ولو لليلة واحدة، نائمًا منذ أن نزلنا بهذه الخيام، عويشة لا يُرى إلا واقفًا، صاحيًا، مقبلاً، مدبرًا، لكن عين جدي الساهرة كانت لا تنزل من على أمي غنوجة التي كان يعاملها معاملة خاصة جدًّا، لا يشرب كأس شاي إلا وشاركته كأسًا ثانية، لا يتناول قطعة خبز وكان قليل الأكل، أكل العصفور، إلا إذا تأكد أنها أكلت وشبعت من

قبل. حين شعرت أمي بـي أتحرك في رحمها، بدأ لون شعر لحية جدي يزداد احمرارًا أكثر فأكثر، ووجه أمـي يتـدور ويأخذ شكل القمر في ليلته الرابعة عشرة، مع أنني لم أكـن البطن الأول فقد خلفت أمي سبع بطون من قبلي، بين البطن والآخر سنةٌ، قد تزيد قليلاً من الأيام، إلا أنها كانت، كمـا روت جدتي تامولت، تشعر وهي حبلى بـي ومنذ شـهرها الرابع بنور يضيء سواد الليل من حولها، وكانت إلى ذلـك تسمع جنينها يكلمها كما يكلم الصبـي أمـه، وكانـت تتحدث معه ويطلب منها أن تشرب ماء كي يأخـذ منـه نصيبه، ويطلب منها أن تأكل كي يتقوت هو الآخر. وقـد احتارت النساء في وضعها؛ إذ كن يفاجئنها وهي تتحدث مع نفسها وهي جالسة عند عتبة خيمتها، في حالة من الوسواس، وهو ما دفع بعويشة إلى عرضها على الطبيـب الكوبـي العامل بفرقة الصليب الأحمر الدولي، ثم في الجمعـة الموالية صاحبها لزيارة أحد أضرحة أولياء الله بمنطقة اللجوء اسمـه الولي سيدي يحيى بضواحي مدينة وجدة، وهو كما تـروي الحكايات وليٌّ صالح أوتي الحكمة وقوة التـدبير اسـتجابة الدعوات، وكان يجمع حوله اليهود والنصارى والمسـلمين، كل واحد يعتقد أنه من ملته، فاليهود يسمونه سيدي يحيى بن موسى، والنصارى يعتقدون بنسـبه إلى يوحنـا المعمـدان،

والمسلمون يرون فيه وليًّا من أولياء الله الذي وُهِب البركات، وهو واحد من الستة والثلاثين وليًّا الذين يتصارعهم اليهود والمسلمون، وكان الجميع يتنافس في زيارته والتبرك به والإغداق عليه بالأضاحي وإشعال الشموع، إلا أنه لا الطبيب الكوبي ولا ولي الله سيدي يحيى الذي على ملة موسى أو عيسى أو محمد، استطاعا أن يجدا حلاً لحال أمي. وحسب روايات كثيرة مختلطة فقد كان للجنين، الذي كُنْتُهُ، صوت يُشبه صوت نباح الجرو، وهو ما أحرج أمي وجعلها تختفي عن الأنظار مدة ثلاثة أشهر حتى لا يُسمع صوت الجنين.

كان جميع اللاجئين سعداء لخبر وقف إطلاق النار بين جبهة التحرير وجيشها والقوات الفرنسية الاستعمارية، الذي أذيع في الراديو الصغير الذي لا يفارق أذن جدي اليمنى، اليسرى بدأت تصاب بصمم خفيف أولي. وأمام هذا الخبر السعيد نسيني الجميع حافيًا عاريًا، أنا الحلزون العاري، أنا بوطشل، البزّاق، غارقًا في صراخي وقد تغير صوتي وبلعت لسان الجرو الذي كنت أهذي به حين كنت جنينًا في بطن أمي.

لم يَطُل بنا المقام طويلاً بعد أن زغردت النساء لاتفاقية وقف إطلاق النار، وها حانت ساعة العودة إلى قريتنا قرية

قصر المورو على الضفة الأخرى للحدود. ذات صباح وجدت نفسي أركب ظهر أختي الكبرى سارة التي أصبحت تقوم مقام أمي في الاعتناء بي، ونحن نسير على طريق العودة إلى ديارنا وبئرينا. كانت غالبية نساء الدشرة يحملن على ظهورهن مواليد جددًا، أبناء الظلمة.

كان جدي، وقد غلبه العمر الطويل، يسير تارة على قدميه وتارة أخرى يركب ظهر البغلة التي يأخذ عويشة برصنها، والذي ارتدى عباءة نسائية جديدة مطرزة بألوان العلم الوطني، وزوج حذاء عسكري في قدميه، وقد أصبح يعتني بلباسه أكثر فأكثر منذ الإعلان عن توقيف الحرب بين جيش جبهة التحرير والقوات الفرنسية الاستعمارية، وهو ما أثار انتباه النساء كثيرًا حتى شككن في طبيعة علاقته بجدي، وكأنما تحمل سرًّا فيه حكاية تقبع في قاع بئر عميقة!

8

خمُوسْ عليها!!

بعد البطن الثاني الذي جاء الدنيا ميتًا، شعرت عمتي ميمونة أو فاطمة الزهراء بأن سيدي الشيخ الذي من جراء الاعتماد على التيمم ونسيان الاستحمام بالماء، بدأت تطلع منه رائحة غريبة كريهة، ومع ذلك ظلت رافعة فخذيها له طوال النهار ترن بخلخالها الفضي ذي النياشين منتظرة عودته بعد صلاة العشاء. بدت دخلاته وخرجاته مشوشة ومشبوهة وخاطفة تارة، وقد فقد شهيته الجنسية، وبدا وكأن أمورًا مهمة ومعقدة تشغل باله وتعكر مزاجه؛ فكان يُرى مع بعض العساكر تارة ورجال الدرك الفرنسيين تارة أخرى، في الوقت الذي كان فيه الجميع ممن بقي في القرى والمداشر من نساء وشيوخ وأطفال يتناقل أخبار الثوار الذين يستشهدون يوميًّا في الضواحي.

لأول مرة يدخل سيدي الشيخ على عمتي ميمونة أو فاطمة الزهراء ليجدها وقد أنزلت فخذيها و لم تُسمعه رنين خلخالها، لكنها واجهته بالسؤال التالي: "هل هناك من خبر سيئ؟ أنت على غير عادتك، أنت تخفي عليّ سرًّا ما!".

حاول أن يطمئنها بأن لا شيء يدعو إلى القلق، مع ذلك لم يتمكن من إخفاء الحيرة التي في قاع ماء عينيه. ولأول مرة لم يتمكن سيدي الشيخ من إيلاج عمتي، ولا هي كانت في توهجها الجسدي الجنسي. استسلم لنوم قلق بكوابيس خانقة، ولأول مرة أيضًا أقام صلاة الفجر في البيت و لم يلتحق بالمسجد الذي يشرف عليه ويؤم فيه من بقي من شيوخ الضواحي، ممن لم يستطيعوا اللحاق بالجبال أو هم يشتغلون بسرية مع الجبهة كمسبلين.

شددت القوات الفرنسية حراستها على سيدي الشيخ، أقاموا حاجزًا عند بيته وسياجًا من حوله، وخصصوا له مرافقًا مسلحا يحميه أينما ذهب، في الأسواق والحفلات والجنازات وأثناء الزيارات الخاصة، حتى أثناء إقامة الصلاة كان يقف عند رأسه يراقبه حين يسجد وحين يركع بسلاحه المشهور، وانتقلت الحراسة حتى غرفة النوم. لاحظت عمتي أن عين هذا الحارس كانت لا تفارق جسدها المثير للشهوة الجنسية، وهي التي بدأت تقلقها بعض تصرفات ابنها إدريس البكر الذي

ظهرت عليه بعض أعراض وتصرفات تدل على خلل عصابي، وهو ما دفع عمتي إلى طلب استشارة ومساعدة الحارس الفرنسي الذي أحال الأمر لاحقًا على رئيس البلدية، الذي بدوره أمر بنقل الطفل إلى وهران حيث أدخل مستشفى الأمراض العصبية بسيدي الشحمي، وبمجرد نقل ابنها إلى المستشفى فقدت عمتي كل شهية في الحياة، وأخذت تقضي يومها جالسة عند عتبة البيت تراقب الشمس من شروقها إلى غروبها، لا تكلم أحدًا، ومع مطلع كل يوم كانت تنتظر أمرًا سيسقط على رأسها ليفلقه نصفين أو أكثر.

ولم يعد يسمع رنين خلخالها مع أنها لم تسحبه من قدمها.

وحين يرنّ الخلخال، يرنّ حزينًا.

باكرًا، هذا الصباح، تحركت قافلة من السيارات العسكرية نحو القرية، طوقت المسجد، تم إخراج جثة سيدي الشيخ مفصولة عن رأسها، بعد أن تم ذبحه فجرًا معية حارسه. لم تطل القافلة العسكرية البقاء في القرية إلا عشرين دقيقة أو أقل، تم خلالها تحرير تقرير أمني وقوفًا، تم فيه توثيق اغتيال سيدي الشيخ ذبحًا من قبل أحد الثوار الذين كانوا يراقبونه منذ مدة، وكان تصرفه هذا بناء على أمر من قيادة جبهة التحرير التي كانت ترى في سيدي الشيخ عميلاً يخدم

فرنسا، ويقدم لها تقارير ومعلومات عن أبناء القرية من الذين التحقوا بالجبال، أو من أولئك الذين يقــدمون اشــتراكات للجبهة وهم يعملون في الخارج.

9

عودة السلطانة!

أعراس الاستقلال تخمد قليلا قليلا.

لم يطل غياب عمتي ميمونة أو فاطمة الزهراء، لا يهم الاسم، حتى وقفت على أبواب قرية قصر المورو بابتسامتها ونُكتها وخلخالها الفضي برنينه المثير، وهو يرتجف حول قدمها وساقها المكشوف قليلاً بإغراء أنثوي. لا شيء فيها تبدل، عادت إلى بيت أهلها حاملة رزمة ثياب فوق رأسها وحكاية اغتيال سيدي الشيخ التي بدأت تنسى تفاصيلها. كانت أعراس الاستقلال قد بدأت تخمد، والبارود والرقص قد بدآ يُخْليان المكان للخوف والانتظار والحيرة والتطاحن بين إخوة البارحة، إخوة النضال والثورة، قادة الاستقلال. استقبلتها أمي غنوجة ببرودة بادية، ومثلها جدتي التي صرخت: "أعوذ بالله من هذا الاستقلال، (اليهودية) رجعت

إلى الديار، كنت متأكدة من ذلك، رجل واحد لا يكفيها، لا يملأ سريرها ولا يشبعها!". لكن عمتي ميمونة لم تُعِر صراخ جدتي ولا برودة أمي أي انتباه، بل أخذت أمي في أحضانها وبدأت تقبلها بحرارة وتشدها إلى صدرها بقوة حتى أشرفت على البكاء، فبكت معها أمي أيضًا. أما جدتي فقد انسحبت إلى الغرفة الأصلية ذات النقوش الزخرفية بمجرد أن تحول المشهد إلى مندبة ونواح، اجتمعت على إثره نساء القرية وكثير من الأطفال والذباب.

أذكر ذلك جيدًا:

في حفل جماعي تم ختاني معية عشرين طفلاً آخر جمعوهم من القرى والمداشر المجاورة، صادف ذلك يوم عودة عمتي ميمونة إلى قرية قصر المورو، وكأنما جاءت لحضور هذا الكرنفال القضيبي الذي تكفلت فيه حكومة الاستقلال الوطنية الاشتراكية السخية بإحضار طبيبة بمئزر أبيض، حيث شرعت بكثير من الحذر والنعومة والفن العالي في تقليم أعضائنا الجنسية الصغيرة واحدًا بعد الآخر، والنساء يزغردن والرجال يضحكون، معلقين على الطبيبة الأجنبية التي كانت تقص بعضًا من قضباننا الطرية: "امرأة تختن أطفالاً ذكورًا، إنها علامة من علامات القيامة، في نظام الدولة الاشتراكية كل شيء ممكن، والبقية تأتي يا رب، الدولة اشتراكية كافرة

والختان إسلامي!". وقد زادت التعليقات الساخرة حين علم أهالي القرى المجاورة من أولياء الأطفال بأن تلك الطبيبة الأجنبية من جنسية روسية أو بلغارية وهي شيوعية وملحدة، لكن أحدًا علق بسخرية قائلاً: "إنها يهودية مثل العمة ميمونة، واليهود يختنون أولادهم كما نقوم بذلك نحن أيضًا".
من يومها أيضًا قررت عمتي ميمونة، هي الأخرى، حين علمت بحكاية الطبيبة الروسية أو البلغارية التي قلمت قضيبي الصغير، مناداتي باسم "البزاق" أو بوطشل ومعناه الحلزون العاري، أي بدون صَدَفة، ومن يومها نسي الجميع اسمي وأصبح يطلق علي اسم بوطشل البزّاق.

علقت عمتي ميمونة وهي تكشف عما بين فخذي برفع العباءة البيضاء إلى الأعلى، كأنما لتتيقن بأن الطبيبة لم تقطعه من جذوره، أي من الخصيتين، قائلة: "الله يبارك في هذه الحكومة، حكومة الاستقلال والاشتراكية بدأت العناية بشعبها من القضيب، الله يبارك، الله يبارك، الدولة الراشدة تعرف على أي أساس يجب أن يؤسس جيل الاستقلال، الاهتمام بالقضيب أهم من الاهتمام بالرأس، على كل هي رؤوس أيضًا!". وأطلقت ضحكة طويلة تبعتها بزغرودة عالية تجمعت على إثر صداها نساء قرية قصر المورو مرحبات بميمونة، التي لم تكن متأثرة كثيرًا لموت زوجها في سنوات

الثورة التحريرية، أو هكذا بدت. على كل، لا توجد أسرة جزائرية واحدة لم تفقد واحدًا من أبنائها أو اثنين أو أكثر، الكارثة إذا عمَّت خفَّت، هي الحرب مهما كانت عادلة تظل قذرة؛ لأنها حمالة الموت وناشرة لثقافة الخوف والأحقاد والضغائن والفقد واليتم.

أحدق في خلخال عمتي ميمونة الفضي الجميل المنقوش عليه بعض الرموز التي لم أفهمها، فيشدني في هذا الحلي في قدمها الناعم رأسا أفعوانين مفتوحان على الطرفين. حينما تتحرك عمتي تضرب برجلها على الأرض وإذا برنين خلخالها يثير كل من حولها من الرجال والنساء على السواء، ويبدو الأفعوانان وكأنما يتحركان ويزيدان من تهيجهما ومن فتح فميهما، كل ذلك في إثارة شيطانية ممزوجة بضحكات متقطعة الأنفاس لعمتي المهووسة بجمال جسدها وعطرها وخلخالها. كانت جميلة، تبالغ في تبخترها وفي ارتجافة ساقها المصقول المكشوف قليلاً وهي تمر ذاهبة أو آيبة كي تذيع في مَن حولها لحظة مرورها، وكي تخلخل الرجال وتسحب منهم ما بقي في الرأس من مخ أو مُحٍّ لا فرق، إذا كان قد بقي في الرؤوس شيء من ذلك.

تعتني عمتي ميمونة بتلميع خلخالها مرتين في الأسبوع باستعمال مخلوط النخالة ورماد الكانون. تقوم بذلك دون أن

تسحبه من ساقها، وتزيته كي يحافظ على رنته التي تـــدوخ الرجال وتغيظ النساء، وتثير أسئلة لدى الصغار، رنين خلخال لا يترك حتى عويشة مرتاح البال.

بسرعة مدهشة، استعادت عمـــتي ميمونـــة مكانتـــها وحضورها في القرية وكأنها لم تغادر المكان دقيقة واحـــدة. ومنذ اليوم الأول قالت للنساء والأطفال الذين تحلقوا حولها: "اسمعوا ها أنا أعود إلى بيت والدي، على الجميع أن ينســـى اسم فاطمة الزهراء نهائيًّا، لا أريد أن أسمع أحدًا يناديني بهـــذا الاسم، اليوم أستعيد اسمي "ميمونة" الذي سرق مني، وأستعيد معه مكاني في قرية قصر المورو وبـــين أســـرة آل المـــورو، وسأجلس كالعادة تحت ظل شجرة التين التي كبرت وأكـــل جذعها النمل الأحمر والأسود. أنا ميمونة أو اليهودية لا يهم، أنا هنا، سأظل تحت شجرة التين أهز خلخالي كي يصل رنينه إلى الطريق الرئيسي المُعبَّد، فيثير المارة من سائقي الســـيارات والحافلات والشاحنات والحمير والبغال، فيجيئون إليَّ بالفرد والمثنى والجمع، أختار منهم واحـــدا أو اثـــنين أو أكثـــر" وتضحك وتحرك خلخالها في حركة غنج.

حين نادى عليها والدي، تلك القيلولة، الصيف علـــى الأبواب، سحبتني في طريقها كالفأر كي أرافقها وهي تدخل عليه قائلة بشزر: "تعال معي يا بوطشل البزّاق". قبّلتْ رأسه

أربع مرات، وظاهر كفه اليمنى التي سحبها منـها بسـرعة مرتين، لم يرفع عينيه إليها، ولأول مرة أرى عمتي ميمونـة هادئة مضطربة، صغيرة، خائفة، حتى إن خلخالها قد مات في رجلها، فقد كان بدون رنين ولا موسيقى صـاخبة. كـان مثلها صامتًا، أصم. غطت فخذها العاري بعباءتها التي أنزلتها حتى العرقوب، وبدت كالطفلة الصغيرة التي ارتكبت خطـأً ما. شعرت في هذا الصمت بقضيبـي الذي تشافى بسـرعة من جرحه يهرشني، فمددت يدي كي أفرك قشـور الجلـد والبُدْرَة البيضاء والسائل الأحمر المتيبس على قمة الحشـفة، وحين لامسته بعناية بدأ يتمدد حيث عادت الحيـاة إليـه، وشعرت برغبة في التبول، للحظات التبول متعة خاصة!

قال والدي وهو يضع جانبًا كتابًا كان مفتوحًا بين يديه، موجهًا كلامه إلى عمتي: "لقد عـدتِ إلى أهلـك وبيـت أجدادك، فمرحبًا بك. لك من الحقوق ما لبناتي، وعليك ما عليهن من الواجبات. لقد أراحك الله من العيش في فـراش رجل خائن". ثم سكت، وعاد وتناول الكتاب ففتحه وشرع في القراءة بعد أن حمل نظارته إلى عينيه الزرقاوين. انسحبت عمتي ميمونة من أمامه دون رنـة خلخـال، علـى رؤوس أصابعها، دون تعليق، وكأن الأمر لا يهمها على الإطـلاق. سِرْتُ خلفها وأنا أشعر بعباءتي البيضاء التي عليها بعض بقع

اليود الأحمر تدغدغ رأس قضيبـــي الذي تشافي جرحه نهائيًا، وإذ وضعت رجلها خارج الغرفة التي يجلس فيهـــا والـــدي رفعت عباءتها وكشفت عن ساقها، وعلت موسيقى رنـــين خلخالها، وعادت عمتي ميمونة إلى مشيتها وتبخترها وهـــي تقول لأخواتي اللواتي استقبلنها مستفسرات عن فحوى هذه الدعوة الطارئة أو الاستدعاء العاجل، فقالت لهـــن تســـبقها قهقهة طويلة وحركات من يديها وردفيها: "إنـــه يريـــد أن يزوجني برجل ثري وجميل، لكنه يصغرني بعشر سنوات، ولذا دعاني لاستشارتي وطلب رأيي في ذلك قبل أن يتخذ قـــراره النهائي". و"ماذا قلتِ؟" قالت الأخوات بصوت واحد وعلى نفس الإيقاع: "بالطبع رفضت، فأنا لا أرغب في طفل أربيه وأعلمه كل شيء في الحياة وفي الســـرير!". ثم اســـتدارت وكشفت لهن عن قضيبـــي، ثم أضافت: "وربما يكـــون مـــا يزال حاله مثل حال هذا البوطشل (البـــزاق) العـــاري". ثم أرسلن ضحكة عالية، وقبلتني عمتي بقوة، كانت تحبني كثيرًا، وانفجرت أخواتي معها ضحكًا، واختلطت القهقهات برنـــة الخلخال، وأسرعت أنا إلى الخارج لأتبول في الباحة وأبكـــي وقد شعرت بإهانة من عمتي وأخواتي وهي تكشـــف عـــن قضيبـــي المتمدد وأخواتي يتضاحكن للمشهد المسرحي.

مع ذلك أحببت عمتي ميمونة كثيرًا. منذ أن عادت بدأت

أشعر بخوف من أن أفقدها ذات يوم. كانت تفضلني على جميع أطفال قرية المورو وهم كثر، حتى إنني أصبحت لا أنام إلا بجوارها، ومرات أشعر بإحساس غريب تجاهها، تعانقني وهي تتململ وتحلم بصوت مرتفع. أستمع إلى رنة خلخالها في الفراش، فأنام نومًا هنيئًا، نوم الملائكة في أحضان الشياطين! وأحلم أنا الآخر! وأخشى أن أقوم صباحًا فلا أجدها.

كانت عمتي ميمونة مهووسة بالعناية بجسدها، تهتم كثيرًا بسالفها وتنتف شعر حواجبها وشعر إبطها كل يوم خميس، وتقلم أظافرها مرة كل أسبوعين. لا تخطو خارج البيت إلا إذا تسوكت وتعطرت، ولا تصبح على الناس إلا إذا أطلت على وجهها في المرآة، وتأكدتْ بأن ابتسامة عريضة تسكن عينيها الواسعتين، إن لها من الحرص على جمالها ما لا تملكه أنثى أخرى في القرية. في ظرف أسبوع قلبت صفحة سيدي الشيخ عبد الحميد وأقسمت ألا تذكر اسمه في مجلس، وإذا ما سألها أحد عنه قامت من مجلسها واختفت وقاطعت السائل ثلاثة أيام أو أكثر. كانت قادرة على أن تتقدم دون أن يهزمها الزمن أو تحاصرها الذكريات المريضة.

عمتي امرأة ضد الماضي.

عمتي ميمونة امرأة المستقبل والحلم.

خمسة وخْموسْ عليها!!

10

مرآة الخطيئة.

كلما وقفتُ قبالة المرآة الملصقة بدفة باب الخزانة الكبيرة الموجودة في غرفة والديّ، لأنظر إلى وجهي أو لتفحص ملامح عينيّ في مرآة أخواتي، مرآة صغيرة بإطار بلاستيكي أخضر كُن يتبادلنها وعمتي، إلا وقابلني وجه جدي حمديس ينظر إليَّ من خلال نظراتي الخاطفة إلى نفسي، أجد صورته مرتسمة في ماء عينيّ المغرورقتين باستمرار، وكأنني هو، وكأنه أنا. كنت لا أستطيع الإطالة في تفحص وجهي، كنت أكرهني، أخاف من نفسي، أجدني كالخطأ الفادح الذي لا يمكن إخفاؤه، أشبه الذئب تارة وتارة أخرى أشبه ديك جدتي الذي يغلب جميع ديوك الجيران، أهرب من هذا الذي أمامي في المرآة وأسرع إلى ظل شجرة التين، وأبدأ في عد النمل الصاعد والهابط بانتظام عجيب على جذع الشجرة، حتى أصاب بما يشبه الدوار. يقبل

عويشة ويجلس قبالتي بعباءته النسائية دون أن يتفـــوه بكلمـــة واحدة، يشرع هو الآخر في عد النمل الصـــاعد والهـــابط في حركة دقيقة ومنظمة لا يعكر صفوها شيء، نظل هكذا حـــتى يحين وقت تناول قهوة العصر.

أقول له: "كم نملة أحصيت؟".

لا يجيبني، أقول له دون أن يسألني: "أنا أحصيت ســـتة آلاف من الحُمْر وثلاثة آلاف من الســـود". الســـود نمـــل عربـــي، والحمر نمل فرنسي، لم يكن ذلك بصحيح، فأنـــا أضيع في حركة النمل المنظمة حد الدوخة ومعهـــا يضـــيع الحساب عند العدد "تسعة عشر"، دائمًا عند العـــدد تســـعة عشر، لست أدري لماذا لا يمكنني أن أتخطى عتبة العشرين؟

أريج القهوة يصل حتى أنفي تحت شجرة التين العتيقة.

يوم القهوة في بيتنا يوم لا يشبهه يوم آخر، يوم عيد، أو كيوم العيد: تُشترى القهوة يوم الثلاثاء في شـــكل حبـــوب سوداء مائل لونها إلى البني الأحمـــر، تجلـــب مـــن الســـوق الأسبوعي من عند تاجر مشهور اسمه الميلود القندوسي (نسبة إلى القنادسة وهو حي شعبـــي بضـــواحي مدينـــة بشـــار بالجنوب الجزائري، هكذا سمعت والدي يقول كلمـــا جـــاء الحديث عن تاجر القهوة الأمين والفاضل). يقـــام الســـوق الأسبوعي في القرية الرئيسية التي يحج إليها جميع سكان القرى

الصغيرة والمداشر المجاورة مرة كل يوم ثلاثاء، على ظهور الحمير والبغال أو مشيًا على الأقدام، في طقس استثنائي يتم تحميص القهوة في اليوم التالي، أي يوم الأربعاء بعد ساعة القيلولة، بدءًا تترك حبوب القهوة قرابة الساعتين أو أكثر حسب الفصل والشمس والهواء، لتتنفس بعد أن يتم نشرها فوق بساط مصنوع من الحلفاء أو الدوم، بين الفينة والأخرى تقوم عمتي بتحريك حبوب القهوة أمام أشعة الشمس. كانت تعجبها هذه الحركة لأنها تساعدها على إثارة رنين خاص في خلخالها، رنين القهوة! بعدها وبهدوء تنصب أمي الطاجين الخزفي الذي عليه يتم طهي الخبز، فوق الأثافي على نار توقد في حطب الديس أو شجر الزيتون البري، يحتطب من غابة غير بعيدة، هو حطب يجلب خصيصًا لنار تحميص القهوة، هذا الحطب لا يستعمل إلا في هذه المناسبة. تنتظر أمي ومثلها عمتي حتى يسخن الطاجين جيدًا، في حركة استثنائية، تبلل أمي إبهامها بأن تضعه على لسانها مباشرة ثم تلامس به صفحة الطاجين، حين يشخشخ، شخشخة خاصة، تعرف بأن لحظة وضع حبوب القهوة في الطاجين قد حانت. عمتي هي من تتولى رمي حبوب القهوة على صفحة الطاجين كي تهز خلخالها مرة أخرى وتكشف عن ساقها أكثر بحجة تجنب النار كي لا تلتهم عباءتها.

غير بعيد من النار المتقدة بهدوء تحت الطاجين، أقرفص أنا الحلزون العاري، أراقب حركات عمتي المجنونة وطقوس أمي الصوفية الهادئة، قليلاً قليلاً، تصعد رائحة الحطب الطيبة وهو يحترق ممزوجة بأريج القهوة على النار فتدوخني، تنعشني، تطقطق حبات القهوة ومعها يطقطق حطب الديس في النار، ألتصق بالمكان قبالة النار لا أغادره، أراقب أصابع أمي وهي تحرك، بين الفينة والأخرى، حبات القهوة بعناية فائقة، تحركها وكأنها حبات حية فيها روح لا يدركها إلا جدي الذي إذا ما حصل وأن حمصت القهوة أكثر من اللازم يدرك ذلك، فيغضب دون أن يبين عن غضبه ودون أن يخفيه أيضًا، وإذا ما تسرعت عمتي في سحبها من فوق النار قبل أوانها يميز ذلك وهي سائل أسود ينزل بفن في فمه الصغير المحوط بشوارب مرتبة ولحية حمراء مشذبة بعناية عالية.

يشبه جدي صور الرجال الذين في المنمنمة المعلقة على صدر غرفته وكأنه واحد منهم، كأنه خرج للتو من الصورة، صورة اقتنيت من عند قالع الأسنان الذي يجيء هو الآخر كل ثلاثاء إلى السوق الشعبي، حيث يتزاحم الناس عليه لقلع أسنانهم أو لشراء دواء للتقوية الجنسية أو صور للزعيم عبد الناصر.

لست أدري كيف وجدتني أكبر قليلاً قليلاً مع شيء واحد ظل ثابتًا في رأسي لم يتزحزح، إنها تلك الصور الساذجة المرسومة على ظاهر الفناجين الخزفية التي كان يشرب فيها جدي قهوته، فناجين قهوة الصباح وفناجين قهوة العصر، رسوم ورود بأوراق غير متناسقة تشبه أوراق شجر الدالية أو التين التي تغطي بها حواء وآدم أعضاءهما الحميمة (كما هي على الصورة المعلقة في غرفة جدي بجوار المنمنمة وهيدورة الصلاة)، صورة غزالة تشبه امرأة شاردة الذهن متوهجة الجسد، صورة أسد يبحث عن فريسة ليس للأكل إنما لمتعة الافتراس، صورة امرأة بسالف طويل يدور بدوران قطر الفنجان وكأنما هي تفعل ذلك لتثير أحدًا يشبه جدي حمديس الذي كان يشرب القهوة مستغرقًا في تأمل الرسومات، ربما لذلك كانت أمي تعرف التمييز ما بين فناجين تُشرب فيها قهوةُ الصباح وأخرى لقهوة العصر، وكان جدي كلما اقتنى دزينة فناجين جديدة يجيء مبتسمًا، وحين يحتسي قهوته فيها يعلق كثيرًا على شكلها وحجمها وعلى طبيعة الرسومات ومدى تناغمها في الألوان والأشكال مع طعم القهوة. مرات كثيرة كان يرفض تناول قهوته في بعض الفناجين التي عليها رسومات باردة، فيعلق بتأفف: "هذه فناجين خاصة بالشاي الياباني أو بالحريرة المراكشية"،

ثم يسكت، ويرجع الفنجان مملوءًا إلى الصينية، فتقوم أمي وتحضر قهوة جديدة وتحضر فناجين أخرى برسومات أخرى، فيشرب وتفرح أمي ومثلها تفرح جدتي تامولت وأفرح أنا الآخر، وتضحك عمتي من مزاج جدي الطفولي.

من جدي حمديس تعلمت عشق القهوة، من لا يحب القهوة لا يحب النساء، من لا يعشق القهوة لا يعشق الموسيقى، من سافر كثيرًا وطويلاً يعرف عمق صحبة القهوة، ولذة الرشفة الأخيرة المتبقية في قاع فنجان صغير في بلد غريب بارد، في مقهى ضائع في يوم بدون اسم تحت سماء دون حدود ودون حبيب.

القهوة والمرأة والعشق والأسفار صور وجغرافيات متداخلة.

الواقع أنني أدركت، بعد سنوات، أنني لم أكن أشبه جدي حمديس في الملامح ولا في الشكل، ولكني كنت شبَهَهُ في طقوس شرب القهوة وفي حبها. لقد ورثت عنه إدمان شرب القهوة وطريقة اختيار الفناجين الخزفية الأصيلة التي تشرب فيها. حين كبرت أدركت أيضًا لماذا كان الخلفاء العثمانيون يصنفون شرب القهوة من الممنوعات ويضعونها في قائمة المخدرات، إنها بالفعل كذلك؛ لأنها تحمل سحرًا غريبًا في أريجها يجعلك سجين هذه الجاذبية العطرية، القهوة طريق

الحلم. ولاحقًا، بسنوات كثيرة، أدركت لماذا كانت مقاهي باريس وروما وفيينا وفرانكفورت والقاهرة ووهران وطنجة عبارة عن جامعات فيها ولدت مدارس جديدة في الفن التشكيلي والشعر والرواية والفلسفة والسياسية والمُوضة.

القهوة طريق الإبداع والشهوة والحشيش والنساء والسياسة والأسفار.

لا فرق بين نشوة يثيرها كأس نبيذ أصيل وأخرى يثيرها فنجان قهوة وثالثة تثيرها امرأة جميلة أو سيجارة حشيش. النشوة هنا ليست استهلاكًا، إنها حلولية، حلولية العاشق في المعشوق حد الفناء. الله أريج قهوة. القهوة صلاة، كنت أرى جدي مذوبًا في كلام الله تارة وهو يقرأ القرآن الكريم، وتارة أخرى أراه وهو يحتسي فنجان قهوته متأملاً صورة غزالة أو أفعى أو ريش طاووس ملون بشكل ساحر، كما يتأمل صورة الله الذي لا يدرك له جمال ولا مكان!

تلك الرسومات الجميلة والمثيرة بألوانها الساذجة على فناجين قهوة جدي، أريج القهوة ذلك، رنين خلخال عمتي ميمونة بكل جنونه، صمت أمي العميق الصوفي، شبهي بجدي في ملامح الوجه ولا شبهي به مطلقًا، تلك أشياء دفعتني لاحقًا وبسنوات أن أقرر، حينما حصلت على شهادة الباكالوريا، التسجيل بالمدرسة العليا للفنون الجميلة

والتخصص في الفن التشكيلي قسم المنمنمات، لكن حسي المتمرد جعلني وبسرعة أبتعد عن كل ما له علاقة بالديني المتواجد عادة في المخطوطات والمنمنمات، فتسعون بالمائة من المخطوطات التي ورّقتها في مناسبات عابرة، في المساجد والزوايا والتكايا والبيوتات الكبيرة والمكتبات الخاصة والخزانات العامة، بحثًا عن منمنمة ضائعة بين الفقرات أو في الحواشي، هي في شرح خليل ونسخ صحيح مسلم أو صحيح البخاري، وفي حالات شاذة في النحو، ألفية ابن مالك والآجرومية، أو في حسابات معقدة للإرث الإسلامي وقضايا النكاح والوضوء وصلاة الميت وأهوال القبر والقيامة.. هذا ما جعلني أهرب من دراسة المنمنمات والمخطوطات، وأنا الذي كنت مبتهجًا بقراءة كتب مثيرة للجدل تعود للقدامى، كرسالة الغفران لأبي العلاء المعري التي حققتها عائشة بنت الشاطئ، والروض العاطر في نزهة الخاطر للشيخ النفزاوي، وأشعار الحلاج، وبشار بن برد، والفتوحات المكية لابن عربي وغيرها.

حين علمت عمتي ميمونة بأنني سأكون في مستقبل الأعوام القادمة رسامًا، أي فنانًا تشكيليًّا، أخذتني من أذني كالطفل قائلة بصوت عالٍ كي يسمعها من في الحوش من أمي وأخواتي ومن يدخل البيت دون استئذان ولا موعد ولا

هم يحزنون: "اسمع يا بوطشل (البزاق)، يبدو أن طالبة جامعية أكلت عقلك الصغير، واحدة من اللواتي لهن النهود البـــارزة والعسل في الريق والنار في الحجر. اسمع أيها الحلزون العاري، بهذه الدراسة التافهة لن تجد غدًا من يشتري فناجين عليهـــا رسومك التافهة، فآخر عشاق شرب القهـــوة في فنـــاجين برسوم مثيرة روحانية لرسامين مبدعين هـــو جـــدك عليـــه الرحمة".

ومن يوم موت جدي، سقطت مني رغبة التخصـــص في الفن التشكيلي، وغادرت كلية الفنون الجميلة، ثم ســـكنتني رغبة التخصص في "الطب". أريد أن أكون حكيمًـــا كمـــا ترغب في ذلك عمتي، هي ليست رغبة عميقة، إنما هـــروب من شيء ما. كنت كلما تصورتُني طبيبًا، أتذكر بكثير مـــن السخرية مشهد الطبيبة الروسية أو البلغارية التي قطعت جزءًا من قضيبـــي، وكيف كان الرجال يضحكون مـــني ومـــن الأطفال الآخرين الذين جيء بهم من القرى المجاورة للغـــرض نفسه. كان ذاك اليوم هو يوم عودة عمتي إلى قريـــة قصـــر المورو نهائيًّا تاركة بيت أهل زوجها. وكلما تذكرت الطبيبة تتجلى أمامي صورة، أتذكر العباءة النسائية علـــى جســـد عويشة وما كان يثيره من حوله في النساء كما في الرجال من آثار غريبة، وكنت من جراء ذلك أشك في علاقـــة جـــدي

بعويشة، فخلوهما كانت تثير لدي كثيرًا من الأسئلة.. وكنت أعتقد بأن عمتي كانت على علم بشيء من هذه العلاقة، وكانت تخفيها عن جدتي التي كانت في كثير من المرات تبدو لي ساذجة، بل غبية في حبها الإلهي لجدي. لم تكن لتنزعج من علاقة جدي بعويشة بقدر انزعاجها من علاقته بأمي غنوجة.

11

يوم الحمّام!

كنت أجد عمتي ميمونة، على الرغم من قلبها المكسور المُعَنّى، أكثر ذكاء من أمي الحالمة، وأكثر فطنة لما يحيط بها من النساء كما من الرجال، فهي بمجرد عودتها إلى قرية قصر المورو، استطاعت وفي فترة قصيرة جدًّا أن تجمع من حولها أخواتي وكذا بنات أعمامي والأخريات في جلسات القيلولة لتصنع منهن جيشًا جبارًا ضد الكآبة. كانت قائدة حقيقية ضد الشعور بالهزيمة أمام الثكل والعنوسة، مبتسمة دائمة، مستهزئة من الحياة التي لا تمنح الحب.

كنت أنتظر متى يحين يوم الحمّام، يوم الحمّام كيوم القهوة، له طقوسه الخاصة، يوم مخيف. أراقب حركات عمتي المنسجمة مع رنين خلخالها، تضع سطلاً حديديًّا كبيرًا مملوءًا بالماء على النار، تحضر بعض المناشف والألبسة النظيفة،

وحجر الحكّ والغاسول والصابون الذي يشترى من عند القندوسي بائع القهوة. الصابون والقهوة لهما طقس خاص وبائع خاص، يغلي الماء قليلاً قليلاً فوق النار، دون أن تكلمني أو تطلب رأيي تسحبني كالفأر من رقبتي، قائلة: "تعالى يا بوطشل البزّاق، أيها الحلزون العاري". تُدخلني إلى تلك الغرفة الصغيرة نصف المظلمة، غرفة دون نافذة، والتي تُستعمل حمامًا، حيث تعبق منها على الدوام رائحة الصابون البلدي الطيبة، وتستعمل أيضًا في الشتاء لحفظ بعض المئونة كالبطاطا والبصل وغيرهما، أنساقُ لها طيِّعا، دون تعليق أو احتجاج، فأمر عمتي ميمونة أمر لا أمر فوقه، ولا مردَّ له ولا اعتراض عليه.

يسخن سطل الماء المملوء فوق النار الهادئة، تغرف منه قليلاً ثم تخلطه بالبارد في إناء كبير، تصبه على رأسي، أرتجف، ثم تصب ثانية من إناء بلاستيكي صغير بيدها المحناة على الدوام، حناء على طول العام. تخرج الحجر الأحرش تشرع في حك أطرافي، الذراعين ثم الساقين ثم الظهر. أشعر بجلدي يتقشر كلما مر عليه الحجر الأحرش، وأشعر بعظامي تطقطق تحت عنف مرور الحجر، وأصبر، لا أفتح فمًا، فهذا لا ينفع. تصب الماء ثالثة، تنزل حبال الأوساخ مع الماء بين قدمي، تصرخ فيَّ قائلة: "أنت مُدَوَّدٌ يا بوطشل"، في نهاية الحك أو

سلخ الجلد! تُخرج طرف الصابون البلدي، ثم ثانية تبدأ في صوبنة الذراعين والساقين ثم الظهر والوجه والعينين، لكنها حين تمرر ليفة الصابون على المنطقة أسفل البطن، عند ملقى الفخذين، تقف فجأة حركة أناملها السحرية عند قضيبي وتبدأ في ملاعبته بخبث كبير، ثم تنظر إلي، أغمض عيني، لا أستطيع مواجهة نظراتها ولا حركات أناملها، أشعر برغبة في التبول، وأتذكر يوم الختان الجماعي الذي قامت به طبيبة روسية أو بلغارية حيث قطفت بحكمة وحرفية حوالي العشرين رأس قضيب منها قضيبي، أتذكر ذلك المشهد بدقة.

تعجبني وتثيرني حركات أنامل عمتي ميمونة وهي تداعب قضيبي الصغير بقصد أو بغير قصد. الشيطان ينام ويستيقظ على رؤوس أنامل المرأة، للمرأة ألف أصبع ولها تسعة عشر روحًا! للرجل أصبع واحدة ونصف روح! تحت إمرة أصابع عمتي أشعر بمتعة فائقة وفقاعات الصابون تغرق قضيبي الصغير كما القطن السحري، فيتمدد بشكل عفوي، يتصلّب، تضحك عمتي وتقبلني على وجنتي وتضربني على مؤخرتي العارية بمودة قائلة: "كبرت يا بوطشل يا البزّاق". تصب الماء دافئًا على جسدي النحيل، تختفي فقاعات الصابون كلية من على جسدي النحيف، تقبلني

بمحبة. أحب عمتي ميمونة، أعشقها، أريدها زوجة لي حين أكبر وأصير رجلاً يضحك من الأطفال الذين تقلم الطبيبة الروسية أو البلغارية أو الكوبية قضبانهم الطرية! تلفني عمتي ميمونة اليهودية في فوطة كبيرة بيضاء ناصعة مطبوع عليها رسوم لنجوم سداسية وأهلة بلون أخضر بارد ومتناغم، أسرع إلى الغرفة تكون ثيابي النظيفة تنتظرني، أرتديها على عجل، أتشمم أريج القهوة في الباحة تحت شجرة الدالية، أسرع عند جدي إذ تكون ساعة قهوة العصر قد حلت. لقد تعود جدي أن يشرب القهوة وهو جالس القرفصاء على جلد خروف بصوف ناعم كثيف صيفًا وشتاء، تقابله أمي وجدتي التي بدت عليها فجأة آثار فقدان الذاكرة ومرض السكر منذ عودتنا من مخيمات اللاجئين، وباتت لا تتوقف عن السعال والصراخ خاصة حين يتعلق الأمر بمس دجاجها أو مربعات نعناعها بسوء، وتوقفت عن إعداد مربى المشمش.

كان جدي حمديس أول من رفع نظارة فوق أرنبة أنفه في القرى والمداشر، في كل الضواحي، كان فخورًا بزجاجها يمسحه بقطعة كتّان خاص تارة، وبخرقة يقال إنها من جلد الإبل الخالص تارة أخرى. وقد أصبح في أيامه الأخيرة لا يفتح كتابًا إلا إذا كانت النظارة فوق عينيه، في مكانها، مرات كثيرة كان يبحث عنها ناسيًا بأنها فوق عينيه! اقتنى

نظارته من التاجر الزنجي الجوال، الذي يقال إنه من دارفور السودان، والذي يمر راكبًا بغلته بقرية قصر المورو ثلاث مرات في السنة القمرية، عشية عيد الفطر وثلاثة أيام قبل عيد الأضحى وعشية يوم عاشوراء، يبيع النساء السواك والكحل والصابون والأمشاط ونوعًا من الثوب المُسمى ساري الذي تخاط منه العباءات النسائية مختلفة الأشكال.

كان لبس النظارة دليلاً على العلم والمقام العالي والاحترام، وكان جدي حين يلبسها ترتفع مرتبته بين الحاضرين بدرجات كثيرة. بمجرد أن يرفع النظارة ويضعها على أرنبة الأنف، تسكت النساء نهائيًّا ويهدأ الأطفال ويستمع الرجال إلى ما قد يتفوه به، فكلامه موجود في الكتب والبحث عنه يتطلب لبس النظارة.

تعجبني نظارة جدي حمديس!

أنا الوحيد، من بين أطفال وشباب قرية قصر المورو جميعهم، من كان يُسمح له بلبسها، أضعها على عيني وأنا خائف من أن تسقط فينكسر زجاجها فيموت جدي وتحترق كتبه، وتنزل الصاعقة على القرية واللعنة على أهلها، وينسلّ خلخال عمتي من قدمها. كلما حملت النظارة تتوتر أعصاب أمي، أجلس مثلما يجلس جدي، أقلده، فيضحك، وتبتسم أمي ولا تأبه لذلك جدتي تامولت، وتتغامز أخواتي من شكلي

الذي يشبه القزم أو الشيطان الذي يخرج من قمقم الحكايات.

مع تلاحق السنوات بدأ جدي حمديس يفقد بصره أكثر فأكثر. لقد تجاوز التسعين بسنوات وبضعة أشهر، كما يؤكد ذلك بنفسه. لقد أشرف على القرن، وما عادت النظارة تنفع في شيء، مع أنه كان يداري عجزه أمام الحضور بأن يبقيها على أرنبة أنفه حتى ولو كان ذلك دون جدوى. لقد أصبح لا يميز بين الحاضرين إلا إذا تكلم أحدهم، يعرفهم من نبرات أصواهم، ولكن وبسرعة كبيرة بدأ يفقد أيضًا حاسة السمع، حتى إنه وفي فترة شهور قليلة لم يعد يسمع نهائيًّا أو يكاد، أو هكذا تخيلته، وهو الذي كان يسمع صوت سقوط حبات الندى. لست أدري لماذا كنت متيقنًا أنه ظل يسمع، حتى وهو أصم مائة بالمائة، صوتًا واحدًا هو صوت أمي، هذا الصوت لا يمكنه إلا أن يسمعه حتى ولو كان خافتًا كعادة أمي في الحديث. كنا نتحلّق حوله فيظل الوقت كله ساكتًا لا يحرك طرفًا، ولكن مع مرور الأيام أصبح يعرف الحاضرين من رائحتهم؛ فلقد استثمر في أنفه حتى أضحى يعرف الواحد بمجرد أن يقف على بعد ثلاثة أمتار منه، يميز جيدًا بين رائحة هذا وذاك، بين هذه وتلك، فكان بمجرد أن يدخل الواحد أو الواحدة عليه وقبل أن يسلم

أو تسلم يرفع صوته مرحبًا به أو بها، ولم يكن يخطئ في ذلك أبدًا.

كثيرا ما كان يتذمر من روائح البعض، خاصة أخـــواتي وبنات أعمامي وبعض الزائرات حين يدخلن عليه وهن على عادتهن الشهرية، حتى إن أمي نصحت أخواتي بأن لا يدخلن عليه حين يكنَّ بدمهن، وبالفعل أصبحن يحترمن ذلك، وكان سعيدًا؛ لأن بشارة الدم دليل على بقاء الشرف وثباته. حين تغيب الواحدة خمسة أيام يعرف بأن دمًا يقطر بين فخـــذين وأن شرفًا لا يزال مصونًا، وبعد خمسة أيام يســـأل عنـــها، وحين تدخل عليه يطلب أن يلامس شعرها وملامح وجهها. تدخل عليه وهي في نظافة كاملة، تقبل ظاهر كفه ورأســـه؛ فيسعد لاستقبالها ويشرب معها فنجان قهوة أو كأس شاي.

كنت آخذ بيده، أرافقه حتى المكان الذي خصصته لـــه جدتي لقضاء حاجته غير بعيد عن السور الخارجي للقريـــة، أوصله المكان وأنتظره على بعد بضعة أمتار حـــتى يتنحـــنح فأفهم أنه أنهى المهمة، فآخذ بيده ثانية وأجوب بـــه باحـــة القرية. يسلم على من يلقاه في الأزقة، يســـأل عـــن الحـــال والأحوال دون أن ينتظر جوابًا؛ لأنه لم يكن يسمع شـــيئًا أو قليلا جدا، ولكنه ومن الرائحة كان يعرف الواقف أمامه، ولم يكن يخطئ التقدير أبدًا.

يتوقف قليلاً وسط الساحة العمومية أو في الحوش الكبير، بهدوء يسحب يده من يدي الصغيرة، ثم يرفع عينيه المطفأتين نحو السماء، يبقيهما لفترات نحو الأعلى، ينزلهما ثم يرفعهما ثانية، يصمت ويقول لي بعد أن يمسك بيدي: "ستمطر غدًا"، أو "ستمطر بعد ثلاثة أيام، على الفلاحين أن يستعدوا ويسعدوا". وبالفعل يستعد الجميع لاستقبال المطر بعد يوم أو بعد ثلاثة أيام، ولم يكن يخطئ في ذلك أبدًا. كانت تنبؤاته الجوية تساعد الأهالي على التحضير الاستباقي للسيول الجارفة؛ إذ كان يستطيع أن يحدد بدقة غزارة المطر وساعة سقوطه ومدة الهطول. وكان يتنبأ أيضًا بسقوط الثلج الذي كان حين نزوله تصاب قرية قصر المورو والأنحاء بشلل شبه تام، لا شيء يتحرك فوق البساط الأبيض سوى نحن الأطفال، نلعب ونتضارب بكرات الثلج، ونضحك ونتضاحك.

كانت عمتي ميمونة تخاف من الثلج خوفًا مريعًا، إنه الشيء الوحيد الذي يخيفها ويبقيها حبيسة البيت! فكلما تنبأ جدي بسقوطه، تفتعل على الفور مرضًا، تلزم غرفتها لا تغادر السرير، تضع فوطة كبيرة على رأسها ومخدة سوداء اللون على عينيها كي لا ترى أحدًا يدخل عليها وفي عقب حذائه أو على ثيابه بقية من بقايا نتف الثلج. مع ذلك كانت

تسألني عن سُمْك الثلج، ولا تخفي خوفها على صحة عويشة من البرد. في مثل أيام الثلج تتذكره وتفصح عن إحساس غريب تجاهه، أما أيام الصحو والمطر والقيظ فإنها لم تكن، أو هكذا كانت تبدو لنا، تبدي أي اهتمام لوجوده من عدمه.

لم أكن أتوقع أن تدخل أختي، ذات مرة، على أمي لتقول لها إنها رأت عمتي ميمونة تمسك بيد عويشة، وتلعب بأصابعه وتحتضنه وهو يبادلها نفس الحركات المثيرة. سمعت ذلك من أختي سارة التي تشبه الأنبياء، لا تكذب ولا تخاصم أحدًا ولا ترفع صوتًا أمام أحد، لسانها صافٍ، عسل، حتى حين كانت الخصومات تنشب بين أفراد العائلة الكبيرة، نساء الأعمام والعمات والحفيدات والأحفاد، كانت لا تنبس بكلمة واحدة مفضِّلة أن تسحب أمي إلى الداخل بعيدًا عن صراخ النسوة، يشربان كأس شاي أو يتحدثان في أمرنا أنا وأخي مجيد. أن تشهد أختي الكبرى على هذه العلاقة فمعنى ذلك بأن أمرًا غريبًا سيضرب قرية قصر المورو قريبًا. لذلك قررت أمي أن تستبق الفضيحة بأن نادت عمتي ميمونة، أخذتها جانبًا إلى الغرفة التي نستعملها حمّامًا، أغلقت عليهما الباب، وقفت أنا أتنصت على حديثهما المرتفع الحادّ، كانت أمي تصرخ، أول مرة أسمع أمي تصرخ بتلك الطريقة قائلة:

"الفضيحة يا ميمونة!". رددت ذلك مرات كثيرة، بل لم أسمع من كلام أمي سوى هذه العبارة. أما عمتي فكانــت تقــول عبارة واحدة غير مفهومة: "حتى هذاك رجل، رجل ونــص، وعنده ما عند الرجال الآخرين وربما أفضل منهم!".

12

اللامبة!

هذا المساء، يا للعجب! سقطتِ الشمس بسرعة من السماء، هكذا شعرتُ، قبل نزول الظلام بقليل وجدت نفسي واقفًا عند عتبة بيت عمي إدريس المحاذي لمنزلنا، وجدت نفسي في هذا المكان، لست أدري كيف ولماذا؟ أصخت السمع للتأكد مما يصلني من صوت غريب قادم من داخل بيت عمي، سمعت صوت مرتِّل قرآن أو ما يشبه القرآن. اقشعرَّ جلدي، فانسحبت خائفًا إلى بيتنا، أسرعت الخطى نحو أمي كي أخبرها بما سمعت. وجدها عند عتبة الغرفة الفوقانية منحنية وهي تمسح زجاج اللامبة الغازية، كانت تقوم بذلك بعناية كبيرة، كعادها، تمرر خرقة قطنية بيضاء على الزجاج ثم ترفعه أمام ما بقي من ضوء النهار كي تتأكد من اختفاء كل غبش أو بقايا دخان عليه، أضافت

قليلاً من الغاز المميع إلى خزان اللامبــة، صــعدت رائحــة أيقظتني أكثر، قلت لأمي وهي منشغلة باللامبــة: "سمعــت صوت مقرئ قرآن أو ما يشبه ذلك قادمًا من بيــت عمــي إدريس". لم ترد عليّ، واصلت البحث عن علبة الكبريت التي عثرت عليها بعد لأي تحت جلد المعز الذي كان ملقــى في ركن الغرفة. عادت قبالة الباب، إلى مكانها، قلت لها ثانيــة: "لقد سمعت صوتًا يقرأ القرآن أو ما يشبه ذلك جهرًا في بيت عمي إدريس". وكما في الأول لم تُعِرْ كلامي انتباهًا، أشعلتْ عود كبريت، رأيت في ضوئه وهي تقربه من فتيــل اللامبــة الغازية شعرها الأحمر، أحمر بلون الحناء، حين أمسكتِ النارُ في الفتيل المبلل بالغاز المميَّع، أعادت الزجاج إلى مكانه، ثبّتته جيدًا وبدقة على قاعدة اللامبة، استدارت إليَّ قائلة: "هــذه اللامبة اشتراها جدك من فاس يوم ولدت أختــك الكــبرى سارة". بدا لي اسم أختي غريبًا على لسانها. رفعت اللامبــة الغازية، علقتها في مكانها بالمسمار المغروس بجــدار الغرفــة والمخصص لذلك، قلت لها ثالثة: "لقد سمعت قارئًا يقرأ جهرًا القرآن أو ما يشبه ذلك في بيت عمي إدريس". قالت وهــي تحدق في اللامبة لتتأكد جيدًا من أنها في مكانها معلقة بتوازن كما هي العادة: "كلنا سنموت ذات يوم". لستُ أدري لماذا فكرتُ اللحظة في موت جدي حمديس. كنتُ أعتقــدُ أنهــا

تقصد ذلك، شعرت بحزن على جدي وأيضًا بخوف من فقدان عادة شرب قهوة العصر، وعادة تحميص القهوة. لم أفكر يومًا بأن جدي سيموت، "من تقصدين؟"، قلتُ. "سكينة زوجة عمك إدريس ستموت هذا الأسبوع". ثم اختفت أمي في الظلام، وحين اختفت لم أكن متيقنًا أنها أمي هي من كانت تحدثني. بدا لي صوت المرأة التي كانت تنظف زجاج اللامبة والتي أعلنت لي عن موت سكينة لا يشبه صوت أمي، في هذا الأخير نبرة غريبة، قريبة من نغمة قارئ القرآن الذي سمعته قادمًا من بيت عمي إدريس. اقشعر جسدي. ارتجفت. بحثت عن عمتي، هي الملجأ دائمًا لكني لم أعثر عليها.

خرجت إلى وسط الحوش وناديت على أمي، لكن صوتها جاءني من الجهة الأخرى، ليست الجهة حيث ذهبت المرأة التي تشبه أمي، والتي أشعلت اللامبة وعلقتها في المسمار واختفت. أسرعت في اتجاه مصدر صوت أمي، هذه المرة هو صوتها بنغمته الحنونة والرومانسية، لكني وجدتها هي الأخرى تمسح زجاج اللامبة نفسها التي كانت تمسحها المرأة من قبل، نظرت إلي، كانت تضحك، هي أمي لكن أسنانها ليست أسنان أمي، مع ذلك شعرت بطمأنينة لها، كرّس هذا الارتياح صوت أختي سارة الذي جاء من الغرفة الأخرى

مُذكرًا أمي بأن عليها أن تضيف قليلاً من الغاز المميع لخزان اللامبة، فهو لن يكفي للسهرة.

ابتعدت قليلاً عن مدخل الغرفة التي كانت فيها أمي، واقتربت من الباب الخارجي علني أسمع ثانية صوت قارئ القرآن الصادر من بيت عمي إدريس. لا صوت، سوى صوت صراصير الليل التي بدأت تتبادل رسائل الغرام بينها في سيمفونية لا تنتهي حتى طلوع الصباح.

بعد ثلاثة أيام ماتت سكينة زوجة عمي إدريس. لم أُفاجأ بخبر موتها، ولكن أمي كانت تصرخ وتضرب على فخذيها بمجرد أن وصلها الخبر. سحبتُ جدي حمديس من ذراعه وقد أدرك حادثة الموت، فهو الذي يشم كل شيء، يبدو أنه تشمم رائحة الموت التي نزلت ببيت ابنه إدريس، للموت رائحة خاصة. دخلنا بيت عمي، كانت الغرفة التي بها سُجِّي جسد سكينة غاصَّة بالنساء والأطفال. فُتِح لنا ممر، وحين اقتربنا من الجثة الممدة على مطرح من الإسفنج الصناعي، قرفص جدي، سحب الغطاء من عليها، مرر يده على وجهها، تركته وحده يقرأ القرآن وهربت إلى الخارج. شعرت الآن بأنني كنت أحب سكينة زوجة عمي إدريس دون أن أعرف من قبل أنني كنت أحبها إلى هذا الحد، بكيت. كانت امرأة لا يسمع لها صوت في قرية قصر المورو،

هادئة، كانت تعامل عمي إدريس كطفلها المدلل، تمسح لـــه حتى مخاط أنفه، منذ تزوجته وهي تتعب في تربيته كأية أم مع ابن عاق. كان لا يهدأ، يجري وراء البنات في الساحة وبـــين الأزقة يرميهن بما في يده من طوب أو عجين أو فاكهة فاسدة أو أي شيء ويقهقه، حين يكون عمي إدريس في باحة القرية لا فتاة تستطيع الخروج، إذا أمسك بها، أخذها من ســـالفها وجرّها في التراب ضاحكًا كما الأطفال. ومع ذلك لم يكن يثير غضبهن، كن يقبلن منه ذلك بفرح ومحبة.

وحدها عمتي ميمونة كانت تضعه عند حده، تتخاصم معه فتغلبه، تطرحه أرضًا، ثم تجلس فوق بطنه وتضحك عاليًا قائلة له: "سأنزع عنك سروالك يا ابن أبـــي وأعطيه لعويشة وألبسك عباءته الوردية.. يا ابن أبـــي". حين تكون عمـــتي ميمونة في الباحة تخرج البنات بكل حرية دون خوف مـــن عمي إدريس الذي يتحاشى أخته ميمونة، ويشد سرواله بحزام محكم الربط كلما مرّ أمامها أو جلس في مجلس هي فيه، يقوم بذلك مخافة أن تفاجئه فتعرِّيه أمام البنات، وهو الذي يرتـــب ويقص شواربه ويقلمها كل يوم اثنين مساء استعدادًا لسوق الثلاثاء الأسبوعي. كان يقص شواربه ويحلق لحيته حتى وإن كان قد قرر عدم الذهاب إلى السوق.

دوخة.

عندما ماتت سكينة، لم يكن زوجها عمي إدريس بالبلد، فهو لم يعد من المهجر من قبل بداية الحرب التحريرية التي انتهت باستقلال وبختان جماعي للأطفال، نظرًا لمواقفه التي اتخذها سنوات الثورة والمتمثلة في مساندته وانتمائه للحركة الوطنية الجزائرية (MNA) التي قادها الزعيم مصالي الحاج، والتي كانت تنشط بفرنسا على وجه الخصوص بين صفوف العمال المهاجرين، وهو الأمر الذي جعل جبهة التحرير تحكم عليه بالإعدام.

دفنت سكينة في اليوم التالي عصرًا، وبعد ثلاثة أيام كان على والدي أن يذهب إلى القرية الرئيسية ليبعث ببرقية تلغراف إلى أخيه يعلمه بالخبر المؤلم. يتم إرسال جميع البرقيات من مخفر الدرك الوطني الكائن بالقرية الرئيسية. وصول برقية لأحد معناه وصول خبر عن موت قريب، لا تبعث البرقيات إلا للإخبار عن الموت، أما أخبار الأفراح فتصل وحدها وبالسرعة المطلوبة. قدم والدي شفويًّا مضمون الخبر لدركي تولى كتابة محتوى الخبر بالفرنسية، ثم نقله عبر الهاتف الوحيد إلى مركز التلغراف بتلمسان ومن هناك يتم إرساله. البرقية تصل في غضون ثلاثة أيام إلى فرنسا. عاد والدي في حالة من القلق وهو يقول لأمي وقد شعر وكأنه ارتكب خطأً فادحًا: "أتمناه ألا يجيء، فقد يُقبض عليه ويرمى به في السجن مدى

الحياة. لم يكن صحيحًا أن أرسل له برقية عن طريق الـــدرك الوطني، كأنني بذلك منحتهم الطعم الذي بـــه يصـــطادون السمكة التي يراقبونها منذ الاستقلال، بل منذ اندلاع ثـــورة التحرير المباركة".

بعد موت سكينة بليلة واحدة انتقلت عمتي ميمونة من بيتنا الذي كانت تقيم به منذ أن تركت بيت أهل زوجهـــا، عائدة إلى قرية قصر المورو حاملة كومة ثياب على رأســـها، إلى بيت عمي إدريس لترافق بناته وأبناءه، فهم أربع إنـــاث وأربعة ذكور. كان قرار انتقالها من بنات أفكار جدي، أمـــا والدي فلم يكن يرى هذا الرأي؛ لأن وجودها في بيت عمي إدريس سيعطيها الحرية الكبيرة والكاملة في استقبال عويشـــة الذي بدأت علاقتها به تطلع منها رائحة؛ فأصبحت قصصًـــا يتداولها القاصي والداني في القرى المحيطة بقرية قصر المـــورو. لقد أصبح لا يُرى عويشة إلا وتُرى معه عمتي ميمونة، وهو ما أزعج والدي كثيرًا، حتى إنه فكر في طرد عويشة أو وضعه تحت تصرف الدرك الوطني فلا أحد يعرف من أين جاء، وما هي هويته، ولا من هي عائلته. وربما هذا الغمـــوض حـــول شخصيته هو الذي جعل عمتي ميمونة تعشقه، وهي مستعدة أن تترك العالم خلفها وتهجر الأسرة والأهل لأجله، عنيـــدة، خمسة وخموس عليها.

الشيء الغامض يثير الدهشة أكثر، والرجل الغامض شهية المرأة الواضحة.

قالت عمتي ميمونة بنبرة حادة وقد بدت متعبة وهي تواجه أمي وكأنما كانت تريد أن تُسمِعَ والدي ما تقوله: "الثورة والاستقلال اللذان لا يوفران لي قضيبا نظيفًا ثورة فاشلة واستقلال ناقص. زوجتموني لخائن ثم ذبحتموه، وها أنتم تقتلونني ببرودة. أريد عويشة ومن يرى في ذلك عيبًا فليأتِني بواحد أجمل وأكثر رجولة وله..". وانهارت باكية. أخذتها أمي بكل حنان في حضنها وبدأتا تشهقان معًا.

استيقظ سكان قرية قصر المورو هذا الصباح وإذا بعويشة يرتدي طقمًا أسود وقميصًا أزرق وربطة عنق حمراء منقطة وزوج حذاء جديد ملمّع. لقد خلع عنه ولأول مرة عباءته النسائية، وقف في الباحة المركزية بشعر مسرّح، مبتسمًا مبتهجًا بلباسه الجديد. لحقت به عمتي على التو، حافية القدمين وخلخالها في قدمها يرن بطريقة مثيرة للغاية وللغبار. كانت تجر خلفها الطاهر أصغر أبناء عمي إدريس من ذراعه. وقفت بجوار عويشة، الساعة العاشرة صباحًا تقريبًا، اجتمع كثير من الأطفال والنساء والرجال حول عويشة في شكل حلقة كبيرة، تقدمت عمتي إلى وسط الحلقة بعد أن صنعت لها ممرًّا بين الحاضرين، وضعت يدها اليمنى

على خصرها، أدخلت بطنها قليلاً ورفعــت مــن كتفيهــا لتنتصب قامتها وتطول أكثر، نظرت إلى الجميع نظرة ثاقبة، ثم رفعت صوتها فوق كل وشوشة وقالت بصوت عنيد: "من اليوم فصاعدًا، من هذه الدقيقة وحتى يوم الممات، هذا الذي أمامكم اسمه عياش، السي عيّاش. لا أريد أن أسمع أحدًا يناديه بغير ذلك، سأقطع كل لسان يتجرأ على السي عيــاش". ثم سحبته خلفها وعادت إلى بيت عمي وقد تغيرت موســيقى خلخالها من هادئة إلى غاضبة وعنيفة شبيهة بموسيقى المارش العسكري.

خمسة وخموس عليها، عمتي ميمونة!

من يومها، تخلص عويشة نهائيًّا من عباءتــه النســائية، وتخلص أيضًا من اسمه القديم عويشة ولبس اسمًا جديدًا هــو عياش، وأصبح الجميع يناديه "عياش"، وكأنه جاء قرية قصر المورو بهذا الاسم، حتى أمي التي تطلق عادة على الأطفــال أسماء مستعارة ولا تناديهم إلا بها تجاوبت مع هــذا الاســم الجديد بدون تعليق أو اعتراض. لقد رضخ الجميع لأمر عمتي ميمونة الصارم، كان عياش فرحًا باسمه أكثر من فرحه بلباسه وكأنما ولد من جديد.

في مساء ذلك اليوم الذي تم فيه إطلاق الاسم الجديــد عيّاش على عويشة، أقامت عمتي عشاء دعت إليــه طــويلي

الألسن من الرجال والأطفال ومثلهم من طويلات اللسان من النساء، جاؤوا من القرى والمداشر المجاورة، كانت ليلة تغير فيها كل شيء في هذا الإنسان الجديد: عياش.

وكان لا بد لعيّاش من غرفة خاصة به حتى يستقل بحياته؛ فخصص له والدي غرفة صغيرة كانت تستعمل لتخزين المئونة الشتوية، غير بعيدة من إسطبل الحصان، وضع فيها سريرًا وجمع فيها بعض أغراضه القليلة. ولم يمضِ وقت طويل وبتوصية من والدي حتى عُيِّن عيّاش حارسًا للغابة ومشرفًا على فريق من العَمَلة الموسميين الذين كلفتهم البلدية بإعادة تشجير الجبال، التي كانت قبل سنوات غابات كثيفة تم استهدافها من قبل نيران طائرات الجيش الاستعماري؛ لأنها كانت ملجأ الثوار فأحرقت على آخرها.

هكذا تغير إيقاع حياة عيّاش، ومعه تغيرت موسيقى رنين خلخال عمتي ميمونة. في انتظار يوم آخر!

13

اليوم هو السادس من جوان 1974.

مدينة تلمسان تحت الحراسة المشددة، لا دخول إليها ولا خروج منها. باب وهران وباب تازة وباب سيدي عبد الوهاب وباب الجياد وباب السجان وباب القصبة وباب الخميس وباب القرمدين وباب سيدي بومدين وباب الحديد كلها تحت عيون الشرطة. عيون لا تنام، رجال الأمن باللباس المدني والعسكري ينتشرون في الشوارع والأزقة والساحات العمومية وفي المقاهي، يراقبون الناس ويسجلون الأحاديث ويقرؤون جميع الحركات والسكنات، والقناصة المحترفون يتموقعون على سطوح العمارات وخلف نوافذ بعض شقق العمارات العالية. لقد تم تفتيش مقبرة سيدي السنوسي بالمدينة البارحة مرتين، وأعيد تفتيشها بدقة هذا الصباح قبل الدفن بساعة، وتم نبش بعض القبور للتحقق من أن لا شيء

بها سوى عظام ساكنيها، والصمت، إنها جنازة غريبة لرجل غريب قادر أن يثير كل هذا الهلع في المدينة وهو ميت، فما بالك لو كان حيًّا؟ ارتباك يصل صداه حتى وهران والعاصمة، إذ إن غالبية سيارات الأمن التي تجوب الشوارع مرقمة في العاصمة أو في وهران أو مموهة بدون ترقيم.

إذاعة البي.بي.سي (BBC) .ومانتي كارلو تعلنان وفاة الزعيم التاريخي أبو الوطنية الجزائرية المعاصرة مصالي الحاج بفرنسا، بمدينة قوفيو، يوم 3 جوان 1974، وتخصصان تقارير طويلة عن حياة هذا الرجل الذي ارتبط اسمه بكل مراحل تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، عن نشاطه النقابي، عن نضاله في الحزب الشيوعي، عن سجنه، عن شعبيته، عن إسلامه الطرقي، عن خلافه مع قادة جبهة التحرير وجيش التحرير الذين نزعوا منه قيادة الثورة وألق الزعامة، عن رفض النظام الجزائري في عهد الاستقلال منحه جواز سفر، الأمر الذي لم يتحقق له حتى انهارت حالته الصحية، فلم يحصل على جواز سفر جزائري إلا في شهر أبريل 1974، قبل وفاته بشهرين، وهو الذي نادى باستقلال الجزائر منذ الأربعينيات. الإذاعة تُجري حديثًا مع أحد المؤرخين والمناضلين السياسيين الذي كسّر باب الصمت التاريخي عن هذه الشخصية التاريخية الكبيرة والاستثنائية، إنه المؤرخ محمد حربي.

أحمد بن بلة في السجن، مصالي يموت في المنفى، كريم بلقاسم ومحمد خيضر يُغتالان، حسين زهوان هارب، محمد بودية يغتال في منفاه بباريس من قبل الموساد الإسرائيلي، تفرق الإخوة وصاروا أعداءً، الثورة تأكل أبناءها بأسنان أبنائها. أكل لحم الرفيق والصديق له طعم آخر!

كانت جنازة مصالي الحاج، وعلى الرغم من سرّيتها ومن تشديد الحصار الذي ضُرب على المدينة، مناسبةً لأهالي تلمسان وغيرها لتنظيم مسيرة تمَّ قمعها على الفور وبشدة. وعلى الرغم من ذلك سارت النساء بالزغاريد خلف الجثمان من الجامع الكبير إلى مقبرة سيدي السنوسي حيث ووري الثرى. بموت مصالي الحاج تنفس النظام الصعداء، لقد ارتاح من وجود رمز مزعج، شخصية كاريزمية مثيرة للأسئلة التاريخية المحرجة، وظلت المدينة تحت الرقابة لفترة طويلة، وعلى إثر ذلك تم توقيف كثير من المناضلين السريين من الأوفياء لحزب الشعب الجزائري الذي أسسه مصالي الحاج، وقد ظلت خلاياه نشطة في مدينة تلمسان حتى بعد الاستقلال.

لا حديث في المقاهي وفي الأسواق وفي الحمّامات إلا الحديث عن ضريح مصالي الحاج الذي تحول منذ أسبوعه الأول إلى مزار شعبي، تحجُّ إليه يوميًّا خفية قوافل المواطنين

قادمة من مدن داخلية بعيدة من العمال والفلاحين والحرفيين والطلبة والشيوعيين ومريدي الزوايا، ما أن يُغمر القبر بباقات الورد الكبيرة حتى تمر قافلة الشرطة السرية الليلية لتعريه، ليغطى في اليوم التالي بمثل تلك الأكوام من الورود وأكثر.

بعد أسابيع، وصلت رسالة من عمي إدريس إلى أبي، أن تصل رسالة إلى قرية قصر المورو فهذا يعني أنها تحمل خبرًا مثيرًا، غير عادي! كانت رسائل الأهالي تنقلها الحافلة التابعة لشركة النقل العمومي، والتي تمر بالقرية الرئيسية كل يوم باستثناء يوم الأحد، في حدود الساعة الخامسة مساء قادمة من تلمسان. تُودع رسائل الأهالي لدى صاحب البقالية الوحيدة في القرية، كان اسم صاحب المحل "امحند أورابح"، الجميع يعرف امحند أورابح، من لا يعرف امحند أورابح لا يعرف القرية، هو مفتاحها؟ رجل أمّيّ لا يحسن لا القراءة ولا الكتابة. تدرب بشق الأنفس على كتابة الأرقام وإجراء عمليات الجمع والطرح، عملية الضرب خارج قدراته الذهنية، لم يكن ليخطئ أبدًا في حساباته، مع ذلك كان يكتب الأرقام، أو بالأحرى يصورها بالمقلوب لكنه يعرف قيمتها، يكتب رقم واحد وثلاثة وأربعة وتسعة في الاتجاه المعكوس. كان رجلاً طيبًا، أمينًا، فاضلاً، يُقرض الجميع من أبناء الأنحاء ما يحتاجون إليه من غاز أو شمع أو سكر أو قهوة

أو زيت، ولا يطلب المقابل إلا حين تتوفر النقود لدى المدان، وهذا يكون عادة في شهر الدرس، بعد تحصيل الغلـــة مـــن القمح والشعير والزيتون وبيعها، ولكنه لم يكن لينســـى أي قرض ولو كان فلسًا واحدًا. وصلت رسالة عمي إدريـــس، تناولها والدي من يد امحند أورابح بقلق وانتحى على الفـــور جانبًا كي يقرأها. أبـــي الذي تعلم قراءة الفرنســـية علـــى الرغم من أنه لم يبق في المدرسة الفرنسية سوى ثلاثة أشهر، وفي الشهر الرابع غادرها، اســـتطاع أن يتعلمهـــا باجتـــهاد ومجهود شخصيين، كانت الرسالة تعلن في مضمونها عن قرار عمي العودة إلى البلد، خاصة وأن أبناءه وبناته أصبحوا يتامى بعد وفاة زوجته سكينة، فبرحيل الزعيم مصـــالي الحـــاج تم تخفيف الإجراءات الأمنية والملاحقات التي كان عرضة لهـــا مناضلو الحركة الوطنية وحزب الشعب الجزائري، ومنحـــت لكثير منهم جوازات سفر جزائرية.

حين عاد أبـــي إلى القرية، وبمجرد تخطيه عتبة البيت، ناداه جدي ثم قال له: "اجلس بالقرب مني". وجلس والدي، أنزلت أمي مائدة الغذاء، وقبل أن يمد يده لتناول اللقمة الأولى قال لـــه جدي: "أعلمُ أن إدريس قادم، ولا خوف عليه من..".

كانت عمتي ميمونة تستمع إلى الحديث، جالسة أمـــام عتبة الغرفة حافية القدمين، تحرك بين الفينة والأخرى خلخالها

كي تذكّر الجميع بوجودها. إنها العين التي لا تنام. لم يتكلم والدي، و لم يعقب على كلام جدي، بل أخرج رسالة عمي إدريس، وقرأ وشرح للجميع فحواها، رسالة في بضعة سطور، مكتوبة على عجل بالفرنسية:

"باسم الله، السلام عليكم، لقد حصلت منذ أسبوع على جواز سفر جزائري، سأركب أول باخرة أجد فيها مقعدًا للعودة. أنا بصحة جيدة ومشتاق إلى النظر في وجوهكم العزيزة، والسلام على الجميع".

كنت أفكر في زوجته سكينة التي توفيت ولن تكون لها سعادة استقبال إدريس، وكنت أتمنى لو أنها ظلت فقط كي تراه وهو يضحك ضحكته العالية، ويجري خلف أخواتي كي يجرّهن من شعرهن لا لشيء إلا حبًّا فيهن. كان يحب أخواتي، يجلس معهن ويتكلم بمثل لغتهن ويخاصمهن ويصالحهن ويعاتبهن ولا يجرحهن وكنَّ لا يأخذن كلامه على محمل الجد، لا يجرحنه، كان غيابه ثقيلاً وقاتلاً بالنسبة للجميع.

في غياب عمي إدريس، بشهادة الجميع، قرية قصر المورو ليست بقرية آل المورو!

قالت عمتي موجهة كلامًا لأبي وأمي: "يا ليته يعود بسيارة ورومية أو روميتين! النساء المسلمات من البربر

والعرب لا ربح ولا فائدة ولا جمال فيهن". ثم أطلقت ضحكة وأضافت: "عليَّ أن أذهب لأطعم ذلك الغزال، عياش، هذه ساعة عودته من دورية حراسة الغابة، لعله يكون قد أحضر معه بيض حجل أو كيس نبق أو بعض عسل بري، إنه لا يعود فارغ اليد أبدًا ولو ربطة قرنينة أو ربطة نعناع بري".

حين انتشر خبر قرب عودة عمي إدريس بين أبناء قرية قصر المورو، عمّ الفرح الجميع. تغير الجو ورفرفت أجنحة السعادة، وقالت أخواتي: "إنه سيعود بسيارة يركبنا فيها ويذهب بنا حتى آخر الدنيا".

14

المشي في أول جنازة!

حين عدنا من مخيمات اللاجئين على الحدود المغربيـــة، بعد سنوات اللجوء والتخييم، عدتُ راكبًا ظهر أختي سارة تارة، وتارة أخرى أمشي على قدميّ بعض مئات الأمتار، بعد أيام أُخَر نزل أبـــي كالسبع من الجبل معية مجموعـــة مـــن المجاهدين ونور الانتصار والاستقلال بادٍ على وجوههم المتعبة النحيفة. كان يبدو لي في لباسه العسكري طـــويلاً ومخيفـــا، قادرًا على أن يطلق النار من مسدسه في كل لحظة، وكـــان مبتسمًا، لقد حرّر هو ورفاقه الجزائر من الاستعمار. لم يكن والدي يرغب في مال أو منصب، كان ناسكًا، متعفّفًا، بقي ببزته العسكرية يومين، وفي الثالث خلعها باحترام، طواهـــا بعناية ووضعها في الخزانة، قبّل العلم الوطني الذي أحضره معه ثلاث مرات، ثم أمر أخي مجيد برفعه فوق سطح الدار. كانت

عيناه مغرورقتين بالدمع الساخن. دخل الغرفة التي كنا نستعملها للاستحمام، سخّنت له أمي غنوجة سطل ماء، ساح شذى الصابون البلدي الفاسي في هواء المراح، لبس ثيابًا مما يلبس الجميع، وجلس بيننا ساكتًا يرتشف فنجان قهوة. كان حافي القدمين، لأول مرة أرى قدميه فتثيران فيّ شعورًا غريبًا ببياضهما ورقتهما، على الرغم من بعض الكدمات العميقة على الأطراف والأصابع، رشفة بعد أخرى وهو يحلم كما نحلم جميعًا ببلد جديد جميل سيتوفر فيه الخبز والحرية والعدالة والكرامة والعلم، قرر أبي أن لا يشارك في الاحتفالات والمهرجانات الصاخبة التي تنظم بمناسبة وطنية أو أخرى. كان يكتفي بالذهاب حين يتعلق الأمر بإعادة دفن رفات المجاهدين الذين قضوا في ساحة الثورة من أجل الاستقلال. كان يمشي في هذه الجنازات في آخر الصفوف، من بعيد يقرأ بعض آيات الكتاب الكريم ثم يترحم على الرفيق ويعود إلى البيت.

أطلقت الدولة مشروع التسيير الذاتي ثم الثورة الزراعية تحت شعار "الأرض لمن يخدمها"، ونزلت فرق من البيروقراطيين لتسجيل الأراضي التي يملكها بعض الخواص والتي تركت بوارًا، بغرض تأميمها ومنحها للفلاحين الذين من المفترض فيهم خدمتها واستخراج خيراتها، غلة كانت

تستخرج كالذهب حين كانت بين أيدي الكولون من المستعمرين، أراضٍ ترابها ذهب وغلتها ماس، عمَّت القرى قوافل من الطلبة الجامعيين المتطوعين الذين يلوكون خطابات النظام الذي يقتل بعض جناحه البعض الآخر، حالمين وبرومانسية يبشرون بالعدالة والحرية والكرامة للفلاحين ونهاية الإقطاع.

بعضٌ من مالكي الأراضي الفلاحية الذين انتقلوا بعد الاستقلال مباشرة للعيش في المدن الكبيرة، مثل وهران وتلمسان وسيدي بلعباس وتموشنت ومستغانم، ها هم وخوفًا على أراضيهم من التأميم يتركون المدن وعائلاتهم ويعودون إلى بيوتهم في القرى والمداشر، رمَّموا بعض ما بقي من هذه البيوت الطينية وظلوا حراسًا على أراضيهم. أمام هذا الوضع الفوضوي الذي فتَّت العائلات وهدد الملكية وخلق فوضى في العادات والتقاليد، عاد والدي لممارسة مهنة الموثِّق، فاتخذ من المصلى أو المسجد الصغير الذي لم يعد يدخله أحد مكتبًا لجمع وثائق أراضي الفلاحين، الذين يعيشون حالة من الذعر خوفًا من أن تستولي عليها الحكومة فتزوِّرها وتمنحها إلى غيرهم. لقد ضعفت الثقة بين نظام يقود الدولة الوطنية الجديدة وبين المواطنين من الفلاحين والمزارعين ومن الملاكين العقاريين البسطاء أيضًا، شرخ وخوف وحذر.

جمع والدي حوله كثيرًا من وثائق ملكيات أراضي فلاحي المناطق المجاورة والتي كان يرتبها بدقة متناهية، في ملفات محفوظة بعناية، لا يسمح لأحد بمسها. كان صارمًا حين يتعلق الأمر بالأرض ومالكها؛ لأنه يعتقد بأن الأرض هي العرض وهي الجد وهي الغد.

حين انتقلت للدراسة بالكوليج بتلمسان منتسبًا إلى النظام الداخلي فيه، أصبح والدي يعتمد عليَّ في مساعدته على ترتيب بعض الملفات في أيام العطل، وكنت أناقشه في بعض ما تذيعه أمواج الإذاعة الوطنية من قوانين الثورة الزراعية، وأيضًا في الأبعاد السياسية لحملات تطوع الطلبة الجامعيين. كنت في البداية متحمسًا لهذه الأمور بحجة أن الاستقلال هو القضاء على الأغنياء، "الغني هو وريث المستعمِر"، هكذا كان العالم مختصرًا في رأسي الصغير المليء بأفكار مثالية جرعتها من كتب ومراسلات جبران خليل جبران ومي زيادة، ولاحقًا أشعار لوركا ونصوص روزا لوكسمبورغ. كان والدي يستمع إلى حماسي في النقاش ثم يبتسم بنوع من الاستهزاء المؤسَّس على التجربة والحكمة.

لست أدري لماذا حين أنظر إلى والدي وهو يهز رأسه استهزاءً بأفكاري أسترجع جنازة مصالي الحاج التي مشيتُ فيها مراهقًا بين أرجل الماشين، في ذلك اليوم أخلى سبيلنا،

بطريقةٍ غير قانونية، الحارس العام على النظام الداخلي وهو من المتحمسين لهذا الزعيم، أخلى سبيلنا وأوحى لنا بطريقة غير مباشرة بالمشاركة في هذه المناسبة، وحين حاصرنا البوليس وأطلقت القنابل المسيلة للدموع، زغردت النسوة فهربت مع امرأة جرتني وأدخلتني بيتها حيث أبقتني عندها حتى سقط الليل فرافقتني حتى الكوليج وشرحتْ للحارس العام الأمر، وكأنني أحد أفراد العائلة. ضحك الحارس من السيدة؛ لأنه هو من كان قد رخّص لنا الخروج! وفي اليوم التالي داهمت فرقة من الشرطة المدنية مكتبه، سحبوه معهم في سيارة مموهة، وانطلقوا به في اتجاه مجهول، من ساعتها اختفى الحارس العام عن الأنظار، بلعته الأرض!

كانت تلك أول جنازة مشيت فيها دون أن أفهم لماذا كل هذا الحذر، لماذا كل هذا الحضور للبوليس، لماذا الخوف من ميت، لماذا كل هؤلاء الناس من الغرباء الذين أغرقوا المدينة؟

هي جنازة مصالي الحاج، قال لي أحدهم، وكأنه بهذه العبارة قد أفهمني كل شيء، ولم أفهم شيئًا!

لاحقًا، أدركت أن مشاركتي في جنازة مصالي الحاج هي التي جعلت عمي إدريس يفضّلني أكثر على كل أطفال قرية قصر المورو. لقد رويت له بالتفصيل كيف كان الناس

متحمسين، وكيف علت زغاريد النساء وكيف هاجمنا البوليس بلباس غير لباس البوليس، ولكنهم كانوا يحملون مسدسات حقيقية. كان يقول عني وهو يغرف بين أصبعيه قليلاً من تبغه ليلقي به في فمه: "هذا فحل، ابن فحل". الواقع أنني لم أكن أفهم ما كان يقصده عمي إدريس، ولكني كنت سعيدًا لأنني وببساطة كنت سببًا في إسعاده قليلا.

أيام العطل المدرسية كنت أقضيها بصحبة والدي. حين لا أجد ما أساعده فيه من ترتيب أوراق العقود، عقود بيع العقار أو البهائم أو غلال الأشجار المثمرة، أقرأ أشعار محمود درويش أو سميح القاسم أو بلند الحيدري، أو غارثيا لوركا أو رامبو، أو روايات أغاثا كريستي وهنري ميلير ويوسف إدريس.. وفي كل مرة أعود إلى قراءة كتاب النبي لجبران خليل جبران الذي كنت أحفظ عن ظهر قلب أجزاء طويلة منه. حين قرأته أول مرة اعتقدت بأنه من الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل والقرآن، وذات يوم تجرأت وصرحت بذلك لوالدي الذي أجابني بكثير من الهدوء والصفاء وهو يحدثني عن شخصية تدعى ورقة بن نوفل، وهو أول من رأى بنبوة محمد، وهو ابن عم زوجته الأولى خديجة التي تزوجها وعمرها أربعون سنة في حين كان عمره هو الخامسة والعشرين، ولم يدخل ضرة عليها، حتى ماتت. لم أفهم حينها

علاقة جبران خليل جبران بهذا القس الذي يسمى ورقة بن نوفل، ولكن حكايته ظلت ترن في أذني وفي رأسي طويلا، وربما لا تزال حتى الآن.

عند الساعة الثانية عشرة بالتمام، وككل يوم، أسمع رنة خلخال عمتي ميمونة قادمة إلى المصلى الذي اتخذ منه أبي مكتبًا، حاملة لنا معها وجبة الغذاء في طبق من الحلفاء فوق الرأس: صحن وخبز وماء بارد، ويرن خلخالها أيضًا عند الساعة الرابعة، حين تستعد الشمس للنزول نحو الغرب، رنةٌ تختلف عن تلك التي تثيرها عند منتصف النهار، تجيء بتبختر حاملة فوق رأسها صينية عليها إبريق قهوة العصر مع خبز الفطير.

عمتي ميمونة لا تخلف وقتها، كالساعة الرمضانية تكيل الوقت بالدقيقة والثانية وبابتسامة دائمًا.

15

الغزالة

كل قصص الحب التي لا تنسى تبدأ من ابنة العم!

زهرة، اسم عاد لفتاة غير عادية، زهـــرة ابنـــة عمـــي إدريس، فتاة جميلة تخطف عقول جميع شباب قريـــة قصـــر المورو والقرى المجاورة، فتاة بجسد منحوت بإتقان وشـــعرية كما يتصورها الخيال ويتشهّاها الشبان، كأنها هُرِّبتْ، علـــى حين غرة، من صفٍّ لمنحوتات الإلهات اليونانية. منذ أن نبت لها نهدان أضرمت نار التنافس على أشدها بين الشبان، مَـــنْ سيخطف قلب هذه الجميلة ويهرب بها بعيدًا كي يحتضـــنها ويأكلها بشراسة أكل الفريسة دون دم ولا موت ولا إيـــذاء ولا ألم! تكبرني زهرة بأربع سنوات، أقل ببعض الشـــهور أو أزيد بمثلها، لاحقًا، عندما تعلمت وتعـــودت علـــى قـــراءة الكتب، كنت لا أقرأ رواية إلا وأتصورها هي من يتولى دور

البطلة التي يجري خلفها الرجال النبلاء والجميلون ذوو المـال الكثير والسيارات الفارهة، لا أسمع صوتًا جميلاً في محطة إذاعية إلا وأستعيد نبرات صوتها الملائكي المليء بالأنوثة المثيرة لرعشة الشبق.

اختار والدي أن يرسلني إلى القسم الداخلي لمواصلة الدراسة في سلك التعليم العام، بمدينة تلمسان، واختار لأخي مجيد أن يدخل المدرسة الوطنية للمحروقات ببومرداس أملاً في أن يصبح مهندس بترول، البترول هو المال، هو الدولار، هو أمريكا، هكذا افترقنا أخي وأنا، وقلّت الحرب الأخوية في البيت أو اختفت لتعود بحدةٍ أقل في أيام العطل المدرسية. وساد الصمت، وهو ما أزعج عمتي كثيرًا لأنها كانت تحب أن تشعل النار بيني وبين أخي، بأن تقول لأخي مجيد إن زهرة تحبني أنا بوطشل البزّاق، فتثور ثائرة أخي ويكسر كأسًا أو يرسل لكمة على وجهي أو ركلة، وتارة تؤكد بأنها تحبه هو فأغضب أنا وأبكي وأضرب الأرض بقدمي وأسب عمتي وأعيرها بأقبح الكلام. كانت هذه الأخيرة تجد متعة كبيرة في معاركنا الغرامية، بل تجدها ملح الحياة اليومية في البيت، ولا تتردد في القول عاليًا وهي تتابع خصامنا وصراخنا: "لولا عراككما لكانت هذه الدار كالمقبرة، لا أحد يتحرك فيها أو يرفع صوتًا، رنين خلخالي وحده مَن يعلن الحرب على الموت والجمود".

في الثانوية، كلما تسللت إلى سريري في المرقد الجماعي وأغمضت عيني، تتجلى أمامي زهرة فأتصورها تبحث عني في قرية قصر المورو، في الغرف والأزقة والساحة الرئيسة فلا تجدني، تجد واحدًا غيري من أبناء العمومة وهم كُثر، فتعانقه وتحبه وتقبله ويقبلها، مشاهد تنغص نومي، فأبكي وألعن اليوم الذي جاء بي إلى هذه المدينة وإلى هذه الثانوية بهذا النظام الداخلي الذي يشبه الحبس المؤبد. أفكر في الانتحار، أرمي بنفسي من هذه النافذة، ولكني لم أكن أتمنى أن أموت، إني أكره الموت وأحب الحياة، كنت أحلم أن ينكسر ساقي أو ذراعي وأعود إلى البيت لتطعمني عمتي ميمونة البيض المسلوق، وتجلس زهرة بجواري تمسِّد على جبهتي لتتأكد من أن حرارتي عادية، أحب لمسة أصابعها على جبهتي! هكذا كالحرير!!

مع كل دخول مدرسي كنت أشتري مفكرة سنوية أعلقها عند رأس السرير، أشطب فيها على اليوم قبل أوانه، أقضي على اليوم قبل حلوله، وأعد الأيام والليالي بالساعات والدقائق. أنتظر على أحر من الجمر العطل المدرسية، حيث لم يكن يسمح لنا بالعودة إلى منازلنا إلا في عطلة الشتاء والربيع والصيف، ومرات في عطل قصيرة كعطل المناسبات الدينية: عيد الفطر وعيد الأضحى أو عطلة ذكرى اندلاع ثورة

التحرير الموافق لأول نوفمبر من كل سنة، 19 مارس عيد النصر ليس عيدًا وطنيًّا، 19 جوان ذكرى الانقلاب العسكري الذي قاده وزير الدفاع العقيد هواري بومدين على الرئيس أحمد بن بلة يوم عطلة مدفوعة الأجر! كنت أستغل أيام العطل المدرسية دقيقة بدقيقة، أراقب زهرة في دخولها وخروجها، في كل ما تقوم به، وما ترتديه وما تقوله، أحلل وأفسر وأفرح وأغضب، أجلس قبالة بيت عمي من الصباح حتى المساء عَلّي أحظى بابتسامة منها أو بجملة أو بغمزة، وكنت أتحيَّن الفرصة للدخول إلى بيت عمي إدريس بحجة الحديث إلى عمتي ميمونة التي بمجرد أن تراني تصرخ فيَّ ضاحكةً: "جئت يا بوطشل العريان، جئتَ لا من أجل رؤية عمتك اليهودية ولكن لأجل زهرة صاحبة العيون الشهلاء". ثم تحرك خلخالها بطريقة مثيرة، ترقص، تأخذني في حضنها وتراقصني، وتقبض عليَّ وتمسكني من حجري قائلة: "هل نبت لك زغب يا فرخ العصفور، يا بوطشل أيها الحلزون العاري؟". ثم تقبلني وتقدم لي فنجان قهوة أو بيضة مسلوقة أو كأس شاي أو قطعة خبز ساخنة تم سحبها على التو من الفرن عليها قطعة زبدة ذائبة. كانت زهرة تراقب هذا المشهد المسرحي من بعيد وهي تضحك، ثم تجيء وتخلصني من يدي عمتي، فتلتفت إليها وتمسكها من نهديها قائلة: "حين يصبح

لك صدر بحجم صدري آنذاك بإمكانك أن تتكلمي، روحي اقلبي الخبزة على الوجه الثاني، فوق الطاجين قبل أن تحترق فأحرق نهديك النافرتين". وتسحب عمتي قليلاً عباءتها من على صدرها فيظهر ثدياها كثديي عنزة يابستين.

أحب عمتي ميمونة وأشعر أن بيتنا أصبح قفرًا منذ أن غادرته للعيش مع أبناء عمي إدريس بعد موت زوجته سكينة، وأشعر أيضًا بالغيرة وأنا أراها تعامل غزالها عيّاش بكل هذا الحب والعناية الفائقة التي فيها عشق مخلوط بأمومة أو مسئولية أو ما يشبه ذلك. بدأت أغار من عيّاش، إنه يخطف عقل عمتي التي لا عقل لها، وبالتالي قد تنساني أو تتجاهلني في لحظات جنونها وانتباهها الزائد لعيّاش.

أنا عاشق عمتي الأكبر!

أيام العطل المدرسية تندلع المنافسة على أشدها بيني وبين أخي مجيد على من يستطيع أن يخطف زهرة أو يثير انتباهها، أو يحرك فيها شيئًا كالحب أو الإعجاب أو الغنج. أيام العطلة قليلة؛ لذا كان على كل واحد منا أن يستعرض ذكاءه وفطنته ولغته وجرأته في أقل وقت ممكن كي يكسب قلب زهرة، وبالتالي نظراتها وابتساماتها وحركة جسدها الشهي المنحوت من فتنة وهذا هو الأهم. في حضرة أخي الذي يكبرني بأربع سنوات كنت أشعر بأنها تعاملني كطفلٍ صغير،

تعطف عليّ ولا تريد أن تغضبني أو تبكيني، في حين كانت تتعامل مع أخي بطريقة أخرى فيها من الجدِّ المشوب بالخوف. وكانت كلما تحدثت معه تلتفت يمينًا ويسارًا خوفًا من أن يشاهدها أحد من الجيران؛ فالعيون كثيرة خاصة حينما يتعلق الأمر بزهرة الجميلة التي تثير حولها عيون عشرات الشبان، لكنها حين تتكلم معي تبدو في كامل راحتها، ولا يهمها الرائح ولا الغادي من الكبار أو الصغار، النساء أو الرجال، وهذا ما كان يؤلمني أكثر؛ فأشعر بأن أخي يهزمني في كل جولات الحب ويسرق مني زهرة إلى الأبد، بل إنه أصبح يستعملني كي يصل إليها من خلال معاملتها الرقيقة لي. كنت أشعر أنها تتصرف معي بعطف وليس بحب، وهذا ما كان يؤلمني أكثر فأكثر.

في تلك الليلة وبعد سهرة مع أبناء عمي وبناته، وقد كنت أريدها أن تطول، قررت عمتي ميمونة أن أقضي الليل عندهم، فرحت لقرارها، وقرار عمتي لا نقاش فيه، وكنت أتمنى ذلك، وبدأت أفكر في أي مكان سأنام، وأين ستنام زهرة. انتهت السهرة، مدت عمتي حصيرًا عريضًا على طول الغرفة الضيقة التي لا نافذة فيها، ثم ألقت ببعض الأغطية والوسائد، تخاطف الجميع ذلك في لمح البصر، كل واحد ما استطاع إليه سبيلاً. تمدَّدتُ أنا على ظهري على يمين عمتي

ميمونة، هي من اختار لي المكان والفراش والوسادة، وتمددت على يسارها من الجهة الأخرى زهرة التي بدا عليها بعـــض التعب. أطفأت عمتي اللامبة بأن أرسلت على فتيلتها نفسًـــا عميقًا وقويًّا، عبقت رائحة الغاز في الغرفة، سمعت عمتي تتلو بعض الأدعية والصلوات كأنما تكفّر عن ذنوب اقترفها لسانها السليط. شعرت بزهرة وكأنما هي تتخلص من حزامها كـــي تنام براحة، فتحت عيني في الظلام الذي قليلاً قليلاً بدأ ينجلي من أمام عيني، رغم التعب هرب النوم من أجفاني، مـــددت يدي إلى قضيبـــي وجدته متصلبًا كمدفع، جاهزًا لمعركـــة! بعد لحظات ارتفع شخير عمتي ميمونة كصوت محرك ديزيل قديم، استدرت على جنبـــي الأيمن ثم الأيسر ثم الأيمن، مـــن فوق ظهر عمتي مددت يدي ووضعتها على كتف زهـــرة، شعرت بها وكأنها ما تزال صاحية. لم تحرك ساكنًا، دفعـــت بأناملي نحو صدرها باحثًا عن نهديها. تحركت عمتي، سحبتُ ذراعي كسارق يسحبها من جيب ضحية في زحام ســـوق شعبـــي أو في حافلة مكتظة. انتظرت بعـــض اللحظـــات، نظري مصلوب في سقف الغرفة، رائحة الغـــاز تلاشـــت، اندثرت نهائيًّا، عادت عمتي لشخيرها بقـــوة وعلـــى نفـــس الإيقاع الأول، إيقاع يذكرني بموسيقى خلخالها ساعة التعب. مددت ثانية ذراعي في اتجاه زهرة، أمسكتْ بيديَّ وبـــدأت

تلاعب أصابعي، أدركت أنها مستيقظة ومتورطة معي؛ فقررت أن أغير المكان بالقرب منها، على الضفة الأخرى. تسللت تحت شخير عمتي إلى الجهة الأخرى، وجدتني أتمدد وزهرة جنبًا إلى جنب، قبّلتها على فمها، ثم سحبت نهدًا من تحت صدر عباءتها ومصصت حلمته. كانت مستسلمة دون أن تبدي أي اعتراض على حركاتي. تسللت يدي إلى أسفل بطنها، حاولت أن أفك أزرار سروالها. تمنعت قليلاً، ثم حاولت ثانية، تحركت عمتي، وانقطع شخيرها، استدارت بجسمها على الجنب الآخر، فشعرت بأنها أخلت لي مكانًا أوسع، أراقب أنفاسها وأترقب عودتها إلى الشخير. لم يقلع محرك الديزيل، خفت أن تكون قد صحت فتفسد علي خطتي ومتعتي، انتظرت الشخير فلم يأتِ، حاولت أن أمد يدي ثانية كي أداعب نهدي زهرة وشعرت بذراعي ثقيلة، كانت هي الأخرى ساكنة، وبدأت موسيقى شخير آخر، بنغمة أخرى، هذه المرة إنه شخير زهرة، ولم أدر كيف انحدرت في ظلمة النوم السحيق. في الصباح وجدت عمتي تنتظرني واقفة عند رأسي وقد حضرت القهوة وانتهت من دعك عجين خبزها، ابتسمت ثم قالت بكل وقاحة: "المرة القادمة سأدعو الحكومة لطلب الطبيبة الروسية أو البلغارية كي تقطعه من الخصيتين، لا أن تكتفي بمداعبة رأسه بموس أوروبية لا تؤذي ولا تخيف،

مصنوعة من ريش النعام، هل فهمت يا بوطشل، أيها البزّاق، الحلزون العاري؟". لم أجب، دفنت رأسي بين قدمي ثم أسرعت إلى الخارج حيث وجدت أخي مجيد ينتظرني وهو يصرخ: "من سمح لك بالمبيت هناك؟". شعرت أنه أراد أن يقول دون أن يفصح عن ذلك بصريح العبارة: "من سمح لك بأن تنام في غرفة تنام فيها زهرة؟". لم أرد عليه، كان يحترق غيرةً. أسرعت للتبول خلف جدار الحوش حيث يتبول الجميع، حدقت في قضيبي وأنا أضحك من تعليق عمتي: "المرة القادمة سأدعو الحكومة لطلب الطبيبة الروسية أو البلغارية كي تقطعه من الخصيتين، لا أن تكتفي بمداعبة رأسه بموس أوروبية لا تؤذي ولا تخيف، هل فهمت يا بوطشل، أيها البزّاق، الحلزون العاري؟".

16

اليوم العظيم

عودة عمي إدريس.

لا أحد كان ينتظر أو يتوقع أن تتوقف سيارة غريبة هناك عند مفترق الطريق الذي يؤدي إلى قرية قصر المورو، عند نهاية الطريق الترابيِّ الضيق الذي يوصل إلى طريق أوسع بقليل يؤدي بدوره إلى الطريق المعبد الذي يوصل إلى القرية الرئيسة ومنها إلى العالم البعيد، إلى المدن والدنيا الواسعة، إلى وهران وإسبانيا وفرنسا وأمريكا.. بعيدًا، بعيدًا.

سيارة غريبة تتوقف.

ما إن توقفت السيارة الجديدة الغريبة عند بداية الطريق الترابي الضيق الذي يوصل إلى قرية قصر المورو، حتى صرخ جدي حمديس من ركنه الذي لا يغادره وكأنه كان يرى وهو الذي لا يرى إلا بأنفه، بحاسة الشم، قائلاً: "هذه

رائحته، إنه وصل؟". كانت عمتي ميمونة أول من وقف عند السور الخارجي لقرية قصر المـــورو للاســـتطلاع، لا أحـــد يسبقها إلا رنين خلخالها، ولحقت بها علـــى الفـــور بنـــات أعمامي وأخواتي وأمي وأخريات. بـــدت عمـــتي ميمونـــة كالمجنونة، جنونها يطلع من ساقها بل من موسيقى خلخالهـــا المجنون، غير مصدقة أن يكون ذاك العائد هو عمي إدريس. لم تتجرأ النساء على التقدم حتى مفترق الطريقين، بقين يـــراقبن المشهد من بعيد في انتظار أن يطلّ الرجل السائق من السيارة، وبمجرد أن ركن السيارة على الجانب قلـــيلاً ليفســـح ممـــرًّا للدواب والأغنام والبشر، وسكتَ المحركُ حتى صرخت عمتي ميمونة وتبعتها زهرة: "هو والله هو، ابن أبـــي، ابن أبـــي الذي لم تلده أمي". أسرع الجميع لاستقباله وعلى رأســـهم الأطفال، في رمش عين كانوا يقبلونه بدموع الفـــرح، أمـــا عيّاش فقد أحضر فأسًا وبدأ في توسيع الطريق الفرعي كـــي تصل السيارة حتى باب قرية قصر المورو، وبمساعدة الجميـــع فتح الطريق في لحظات، وتقدمت السيارة ببطء يقودها عمي إدريس تلك المئات من الأمتار التي تفصل الطريق الثـــانوي، لتتوقف أخيرًا عند ظل السور الخارجي، عند شجرة الـــتين العتيقة. كانت أول سيارة تدوس تراب القرية وتتوقف عنـــد ظل جدار من جدران بيوتها.

أسرعتُ إلى الدار، دخلت على جدي فوجدته واقفًا وسط الغرفة ينتظرني كي آخذ بيده وأمشي به إلى الخارج. بسرعةٍ سحبته من ذراعه بعد أن عدَّلت من هيئة لباسه قليلا، رتَّبت له عباءته وياقة قميصه الأبيض النظيف الذي تفوح منه رائحة الصابون البلدي العطرة، شعرت بيده ترتجف في يدي، صرخ كمن رأى حين عانقه عمي إدريس الذي لم يستطع التخلص من أحضان وقبلات عمتي ميمونة منذ أن نزل من خلف مقود السيارة.

قال جدي وهو يأخذ عمي إدريس بين ذراعيه في ضمة طويلة: "الآن أريد أن أموت. لقد اكتمل حلمي برؤيتك، بشم رائحتك التي اشتقت إليها، الآن ليأتِ الموت متى أراد". صرخت عمتي في وجه جدي حمديس قائلة: "نحن نريد أن نفرح لا أن تذكرنا بالموت، هذا ليس وقت الحديث عن الموت يا أبّا- سيدي، بعيد الشر عليك، لا أحد يعوض الآخر". وأفحمتْ جدي فسكت، وهو يمرر أنامله على وجه عمي إدريس، فزادت من موسيقى خلخالها كي تبين للحاضرات والحاضرين قوة وجودها وبراعة لسانها أمام أبيها الذي لا يتجرأ أحد على معارضته أو نقده.

من ساعة وصول عمي إدريس، تغير إيقاع الحياة بقرية قصر المورو تغيرًا كليًّا، كان محاطًا بالجميع، يرسل نكتة فوق

أخرى تارة عن الفرنسيات والبلجيكيات، وتارة أخرى عن عيّاش الذي أصبح رجلاً واقفًا في طقمه الأسود وقد تركه حين غادر القرية في عباءة نسائية، يمرر بين الفينة والأخرى يده على ربطة عنقه الحمراء الناصعة، لقد نبت له شارب! نزلت صينية الشاي والحلويات ومعها بدأ سكان القرى والمداشر المجاورة رجالاً ونساء يصلون جماعات وفرادى لتهنئة جدتي تامولت بالعودة المحمودة لرجل لطالما تحدث عنه الجميع واشتاقوا لرؤيته.

صبرتْ عمتي ميمونة قليلاً ولكنها لم تستطع أن تصبر أكثر، عِيلَ صبرُها! فتوجهت بالكلام إلى عمي إدريس الذي بدا فرحًا بهذا الاستقبال على الرغم من لمسة الحزن في عيون أبنائه وبناته التي يعكسها غياب الأم سكينة. بصوتها المخلوط برنة خلخالها قالت: "كنا ننتظر أن تحضر معك رومية أو روميتين أو أكثر، رجل بسلامته وبقامته وبشواربه وبسيارة تسع لشحن عشرة من بني آدم يعود بدون امرأة؟ أنت مشكوك في انتمائك إلى قرية قصر المورو يا ابن أبي. من الآن سنخلع عنك طقمك ونلبسك عباءة عيّاش النسائية التي تخلى عنها، هي لك، على مقاسك". يضحك الجميع، تنظر عمتي ميمونة إلى عيّاش الذي ينسحب من الجمع بسرعة إلى الخارج خوفًا من لسانها السليط، ثم يرد عمي إدريس:

"سيلحقن بـي على متن باخرة الرحلة القادمة، روميات كثيرات!".

حين دخل أبـي سكت الجميع، بلعت عمتي ميمونة لسانها، سلّم على أخيه بسرعة في صمت، لم يسأله حتى عن حاله وصحته، اكتفى بالقول: "الحمد لله على السلامة"، ثم اختفى عائدًا إلى مكتبه بالمسجد المصلى حيث ملفاته وكتبه. علقت عمتي كعادتها: "العلماء قلوبهم من حجر ودماؤهم من سمق أو حبر أسود كالقطران".

في اليوم التالي استيقظ عمي باكرًا، طلب مني أن أرافقه إلى المقبرة، مقبرة الدومة، وهي مقبرة عائلية صغيرة أنشئت حول ضريحي الجد الأول المورو والجدة الأولى ميمونة الحكيمة، تتربع على تلة مغطاة على طول السنة بشجيرات السدرة الشوكية المليئة أغصانها بأعشاش العصافير وبالنبق، وبخلايا النحل البري الذي يصنع عسله في صدفات الحلزون الفارغة، لكم بحثنا عن هذه القواقع المليئة بالعسل الأصفر كصفار الزعفران، كان هذا العسل شهيًّا لا حلاوة تضاهيه حين ينزل فوق اللسان، تركني عمي على أطراف المقبرة واختفى بين نبات السدرة، القبور غير منظمة، ينام الموتى بفوضى تشبه فوضى نوم العائلة على حصير كبير حيث يتمدد الواحد أو الواحدة حيث يجد مكانًا يتسع له، رأس هذا

عند قدمي ذاك! بعض القبور نبتت عليها الحشائش البرية والدوم والزبوج واندثرت معالمها تمامًا، اختفى عمي بين القبور. تحت أشعه شمس الصباح لم أكن أميز سوى رأسه بشعره الأشقر الذي بدأ يتخلله شيب وبداية أثر صلع في مؤخرة الرأس، بسهولة اهتدى إلى قبر زوجته سكينة، ظل بعض الوقت في خلوته، القبَّرات تملأ الصباح بهجةً وكأنها لا تقف على مقابر فيها أحبة نبكيهم ونَحِنُّ إلى لقائهم. قرأ شيئا على روحه زوجته، وصب على قبرها سطل ماء أحضره معه خصيصًا، عشّب بعض النباتات الوحشية من على القبر بيده، ثم رجع غارقًا في أفكار وهموم مفتوحة الشواطئ، يتخطى القبور المتعامدة والمتوازية في فوضاها التي تشبه فوضى الأحياء حذرًا من مغبة المشي فوقها. كان حزينًا، كأنه ليس هو، لأول مرة أشاهد عمي مطفأً، غائب الذهن والنظر.

لم يكلمني و لم أكلمه طوال الطريق ما بين المقبرة والقرية. كنت أمشي في ظله الذي يسحبه خلفه، لم أكن أريده أن يظل في حزنه، إنه رجل من فرح وفكاهة وأمل، لكنه وبمجرد أن لقي عيّاش عند مدخل الدشرة حتى علق عليه ضاحكًا وقد استعاد شخصيته في رمشة عين: "هل اشتريت مع الطقم ما للرجال أيضًا، الرجال ليسوا بالألبسة فقط إنهم يملكون أشياء أخرى تحت السراويل.. يا عيّاش". لم يرد

عيّاش، طأطأ رأسه وفسح الطريق لعمي إدريس، لكن عمتي كانت له بالمرصاد، ردت عليه من خلف السور وبصـــوت عال: "وليس كل من يسوق سيارة برجل، الرجال بما حملوا في عفشهم من نساء روميات شقراوات يا ابن أبـــي الذي لم تلده أمي!".

17

سقوف تقطر!

نحن في منتصف شهر أوت، العطلة الصيفية لا تزال طويلة، فالدخول المدرسي يكون عادة في الأسبوع الأخير من شهر سبتمبر، أو الأسبوع الأول من أكتوبر. مع ذلك بدأ الجو يتغير قليلاً، ونسمات الخريف الأولى المنعشة نحس بها مع نهاية النهار وبُعَيْد غروب الشمس مباشرة.

مع هبوب الرياح الأولى الليلية الباردة، يسقط مطر خفيف يذكرنا بأننا على أعتاب فصل جديد في الأفق، فصل الخريف، يشعرني الخريف دائمًا وككل سنة بالخوف، لست أدري لماذا ولا مِن ماذا؟ يشرع جميع سكان قرية قصر المورو بالاستعداد لترميم سطوح المنازل، وذلك بأن يتم إضافة طبقة جديدة غير سميكة من عجين التراب الأبيض على السطوح تحسبًا لأمطار الشتاء العنيف، ودرءاً لكل شق في السقف قد

يفسد ليالينا الشتوية بتسرب المياه، فلطالما بات الكثير منا محاطًا بالسطول والصحون والقدور الفخارية يجمع فيها الماء النازل من شقوق السقوف في موسيقى تشبه موسيقى التعذيب الصيني، وتلك مناظر مألوفة في كثير من البيوت القروية التي سطوحها من طين، لهذه المناسبة تجهز الأحمرة والبغال، على ظهر كل دابة خُرْجٌ من حلفاء وتسير في قافلة طويلة باتجاه مكان اسمه "غيران ماريكان"، حيث يجلب طين خاص يعجن ثم تضاف منه طبقة جديدة على سطح البيوت، و"غيران ماريكان" هذا، كما يروي جدي حمديس وغيره من سكان النواحي، هو الموقع الذي نزلت به القوات الأمريكية من جيوش الحلفاء في العام 1942 للالتفاف على الجيوش النازية ومباغتتها ومحاربتها من جهة الجنوب، وقد حفر الجنود الأمريكيون هذه الكهوف وسكنوها كل الوقت الذي قضوه في المنطقة، وحين رحلوا سكنها لبعض الوقت بعض رعاة الأغنام ثم هجرها الجميع، واكتشف الفلاحون أن نوعية هذا التراب صالحة لترقيع السطوح وحمايتها من تسرب مياه الأمطار الشتوية.

يقوم الفلاحون بترقيع سطوح بيوتهمْ في أيام تتحول فيها قرية قصر المورو والقرى الأخرى إلى شبه احتفال كرنفالي، يتناول الأهالي الأكل ويشربون قهوة العصر فوق السطوح

جماعيًّا، نساء ورجالاً؛ لأن عمل التسقيف الترابـي تتـولاه النساء أكثر من الرجال.

يعجن التراب مخلوطا بأَرَكّي، وأَرَكّي هو التبن الفاسد؛ أي الذي تبلل ولم يعد صالحًا كعلف للبهائم. يكون العجـن بالأقدام، حيث ترفع النساء عن سيقاهن، ويشرعن في دعك العجين بالأقدام، حتى يختلط التراب بالتبن بشكل جيد، ليرفع بعد ذلك في قُفَفٍ مصنوعة من الحلفاء أو الدوم إلى السطوح، هي المناسبة التي تتبارى فيها النساء بالكشف عـن جمـال سيقاهن، وكان الرجال يميزون بين عجينة هذه المرأة أو تلك، لكل واحدة رقصتها الخاصة بها فوق العجين. كانت سـاعة العجن والدعك هي ساعة الـرقص واسـتعراض السـيقان وأصابع الأرجل المثيرة، خاصة بالنسبة للفتيات للعازبات، بل إن بعضهن كنَّ يجئن من قرى أخرى للقيام بمثل هذا العمـل كذريعة للكشف عن جمال سيقاهن أمام الشبان.

كل راقصة، وكل رقصة لها عجينها الخاص!

أما بالنسبة لعمتي ميمونة فهذه هي الأوقـات الفريـدة والمناسبة المفضلة التي كانت ترفع فيها خلخالها نحـو أعلـى القدم، لتغطس في التراب بكل متعة واشتهاء، وترقص مـع الراقصات وتكشف عن فخذيها بشكل مثير فيهرب الرجال من مواجهة جرأتها الكبيرة.

كان عمي إدريس يقف على السطح، حاملاً بين يديه عجينة من التراب، يتصيد المارات والمارين في الأسفل، لا يعبر أحد أو واحدة إلا ورماه بقطعة من عجين التراب، ثم بمجرد أن تسقط القطعة على رأس أو كتف أو ظهر المارّ ينفجر ضاحكًا. لم يتغير عمي إدريس، ظل هو هو، على الرغم من السنوات التي قضاها بباريس، على الرغم من سنوات الحرب والعنف والصراع ظل هو هو، على الرغم من الموت الذي ظل يلاحقه، لا يزال الطفل مستيقظًا في أعماقه. لم يتنازل عن ضحكته ولا عن عفويته في تصرفاته مع أخواتي وبنات الجيران، لم تغيره لا باريس ولا الحرب ولا الملاحقات ولا النساء ولا الشراب ولا مصالي الحاج!

الإنسان فيه أكبر من السياسة؟

عمي إدريس رجل من سُكَّر وابتسامات وعسل بري وحكايات لا تنتهي. كان يسعد كثيرًا إذ يرمي عيّاش بكرات الطين فيصيبه، فيفسد عليه أناقته الراقية جدًّا، يلطخ طقمه الجديد المخطط وربطة عنقه الحمراء التي كان إذا ما حصل وفك عقدها بالخطأ و لم يعرف كيف يعيد ربطها، فما عليه سوى الذهاب حتى القرية الرئيسة ليطلب، بشكل متستر، من معلم المدرسة أن يعقدها له ثانية، ويعود مبتهجًا بها حول عنقه.

اليوم مهمة عقد ربطة العنق يتولاها عمي إدريس فهو بارع في ذلك، يأخذ الربطة بين يديه، يلتفت إلى عيّاش قائلاً: "تريد ربطة عنق فرنسية أم إيطالية؟". تجيب عمتي ميمونة على التو: "يريدها على طريقة أهل قرية قصر المورو، يا ابن أبي!". في لمح البصر يقوم بذلك، تدوير جزء من الربطة حول الجزء الثاني ثم إدخال اللسان في دائرة صغيرة، السحب على طرف الأول ثم الثاني، والمهمة السحرية انتهت! يراقب عيّاش حركات أصابع عمي باندهاش ويغرق في ضحكه بمجرد أن يرى الربطة عادت إلى طبيعتها بعقدها الجميلة المتناسقة.

تنتهي حملة ترقيع السطوح بأن تسرع عمتي إلى غرفة الاستحمام قبل الجميع، هي الأولى دائمًا، تغسل أطرافها وعنقها ثم تنزل الخلخال إلى مكانه حول قدمها. تمشي مشيتها برنة الخلخال معلنة عن حضورها، ثم على التوالي تمر النساء للاستحمام واحدة بعد الأخرى، ليجتمع الجميع حول عشاء جماعي عند عتبة الدار الكبيرة. بمجرد أن ينسحب جدي ووالدي من حول المائدة، ينطلق عمي إدريس في سرد حكاياته مع النساء في باريس ولِيلْ ولِيُون.

فن الكذب، متعة وإضافة في سنين العمر!

الكذب يطيل العمر.

تعجبني حكاياته الجريئة، لكن هناك فترة ما من حياتـــه تبدو خفية لا تظهر جيدًا في ما يرويه، والتي تمتد على سنوات الثورة تقريبًا، ربما لا يريد أن يزعج جلستنا بمثل ما عاشه من ملاحقات وتهديدات ومحاولة اغتيال مـــن طـــرف الإخـــوة الأعداء.

بين حكايات عمي إدريس أتابع كالثعلب زهرة بعـــين جائعة، وأراقب حركات أخي مجيد الذي يختار له مكانًا غير بعيد منها. يراقبني وأراقبه، تراقبه وتـــراقبني، تـــوزع علينـــا النظرات وتبتسم بغنج.

18

نلعب الحياة كما يجب!

كنا نحن الأطفال الصغار، نحب أن نلعب أدوار الكبار، نمثلها، نلعبها بالتمام والكمال، بكل دقة ومسئولية، نلعبها أفضل من الكبار أنفسهم! نلعبها كما يجب أن تُلْعَب، نجتمع عصر كل يوم، ذكورًا وإناثًا في الساحة العامة لقرية قصر المورو، ساحة متربة ومغبرة، نخط على الأرض مربعات نسميها بيوتًا بنوافذ وأبواب، ونخطّ سوقًا في الوسط وبقالية في آخر المنازل، نحضر بعض العصي وأعمدة من قصب ونسميها أحصنة، أحصنة من أعراق مختلفة عربية وبربرية وإنجليزية بصهيل عالٍ، مربوطة عند مداخل الديار، ونسمي بعض العصيّ الخشنة بغالاً وحميرًا، نجلب من بيوت آبائنا حبات طماطم وفلفل ولفت وجزر وبصل لمطابخنا، ولغذائنا، وولائمنا! كان لكل طفل بنتٌ هي زوجته المحترمة والشرعية!

ومن يلتحق بالمجموعة متأخرًا يزوج على الفور بواحدة. توجد دائمًا واحدة تنتظر الزواج، عدد الإناث دائمًا يفوق عدد الذكور. كانت البنات فرحاتٍ كثيرًا، بأزواجهن قانعات، كل واحدة فرحة بما ملكت من بيت مرسوم على الأرض بحدود مع الجيران، وبحبات طماطم وبصل ومكنسة من ورق الدوم وحصان مربوط عند العتبة، وكان الأولاد فرحين بشوارهم وبنسائهم الطائعات الجميلات اللواتي يعرفن كيف يحضرن الطبخ وكيف ينظفن البيت، وكيف يتزين لاستقبالهم وهم يرجعون متعبين من السوق أو من الحرث أو الدرس أو من لعب الفروسية!!

أول مرة شاركت في هذه اللعبة المثيرة، استقبلني الأطفال بالأحضان وهم يصيحون، وبعضهم يضع راحة كفه فوق حاجبه كأنما يراني عن بعد "ها هو رجل قد وصل". يرحبون بي ويسلمون علي ويسألونني عن الأهل وعن الطريق وعما إذا كنت متعبًا من السفرّ! يقدمون لي ماءً وخبزًا وحصيرًا للجلوس، يبدون لي سعادة كبيرة في أن أكون بينهم، واحدًا منهم. يتبادل أحدهم الحديث على انفراد مع أحدهم، هذا الأخير يبدو وكأنه القائد أو عمدة الحارة أو القرية، ثم بإشارة خفيفة منه يشرع ثلاثة من الرجال في بناء بيتي الخاص! في رمشة عين يخطُّون لي بيتًا جميلاً على شكل مربع أو مستطيل

بمحاذاة بيوت كثيرة أخرى مرسومة على أرضية الساحة بنظام واحترام، ثم يتقدم القائد وكأنه يرتدي برنوسا، لا وجود للبرنوس على جسد القائد! ويمنحني قصبًا حصانًا فحلاً وبعض الأوراق النقدية التي هي عبارة عن أوراق تغليف الحلوى والعلكة، كل ورقة بقيمة نقدية محددة ومتعارف عليها من قبل الجميع، هناك ورقة من فئة الخمسين دينار والمائة والعشرة، العملة مضبوطة كما يجب. كنت مستسلمًا لكل شيء، فرحت كثيرًا بهذا العالم الذي انتقلت فيه بين رمشة عين وأخرى إلى مرتبة رجل ببيت وحصان، غمرتني سعادة كبيرة وأنا أشعر بهذا الاحتفاء، وقد وجدتني بينهم رجلاً يقف مع الرجال الكبار! أقف كبيرًا في الساحة ببيت وحصان وأوراق نقدية، وكان عليهم، ودون تأخر كما أمر القائد، أن يختاروا لي عروسًا، فكان أن سقط اختيارهم، دون سابق تفكير وبالإجماع، على زهرة ابنة عمي إدريس. قالوا بصوت واحد: "هي زوجتك من اللحظة، على سنة الله ورسوله!". وعلى الفور ألقت طفلة بإشارب أبيض على رأس العروس وافتعلت الباقيات زغاريد دون أصوات، وخطوت وإياها إلى الدار التي رسموها لنا على الأرض. أحسست بالفعل وكأنني ببيت وزوجة، وشعرت هي بذات الإحساس، جلسنا قليلاً ثم قالت لي زهرة: "اخرج مع الرجال، إنهم

ينتظرونك في الخارج!". وخرجت ووقفت مع الرجـــال، ثم اقترحوا عليَّ أن نذهب للتسوق حيث في طرف الساحة رسم دكان يجلس فيه أحد الرجال. اشتريت طمـــاطم (طمـــاطم حقيقية) وحبة فلفل (حقيقية أيضًا) وبعض أغراض أخـــرى وهمية كاللحم والزيت والســكر والقهــوة والشــمع و.. أخرجت من الجيب أوراقي النقدية التي هي عبارة عن أوراق تغليف الحلوى، دفعت له، عد أوراقه وأرجع لي الصّــرف، ركبت الحصان وعدت إلى البيت، استقبلتني زهرة بفرح وهي تكنس البيت ولا تخرج عن الخط المرسوم في الأرض. جلست قبالتها، وفي الحين أشعلت النار وشرعت هـــي في تحضـــير الأكل!

سمعت أحدهم في الخارج يقول: إنـــه الليـــل (كانـــت الشمس لا تزال في كبد السماء، إنها ساعة القيلولة!). تمددت على الأرض وتمددت بجواري زهرة، وكان الجميـــع مثلنـــا نائمًا، الصمت، لم يطل بنا ليلنا إلا بعض دقائق وصـــحونا فقمنا لنهار آخر، وخرجت إلى الساحة وأنا أسلم على هـــذا ويسلم علي ذاك، ونصبِّح على بعضنا بعضًا بالخير والبركات. كنت سعيدًا جدًّا بحياتي الزوجية هذه، في هذا البيـــت مـــع زهرة. وفجأة ظهر أخي مجيد، لست أدري من أين خـــرج، اقترب من الساحة الرئيسية من بيوتنا المرسومة علـــى الأرض

بنظام، نظر إلى المشهد فوجدنا في فرح وسرور وبعضنا يتحدث عن السوق والأغنام والمطر والأسفار والأولاد، اقترب مني وصرخ في وجهي بعد أن رآني جالسًا إلى جنب زهرة زوجتي نشرب قهوة الصباح: "ماذا تفعل هنا يا بوطشل العريان، الحلزون العاري، وقد كاد الليل أن يسقط؟ أمي تبحث عنك، ادخل إلى جحرك فورًا". شعرت به وقد جن جنونه وهو يراني في خلوة مع زهرة وهي فرحة بوجودي إلى جنبها. قال له الأطفال بصوت واحد: "اتركه، إنه مع زوجته". رد أخي بصوت حاد: "حتى بوطشل البزّاق يتزوج!". ثم بدأ بمحو رسم البيت، بيتنا أنا وزهرة، من على الأرض بقدميه بحنق، وأمرني أن أعلن طلاقي على الفور من زهرة: "طلقها بالثلاث". قالها بعصبية، لم أفهم شيئًا، تركت زوجتي زهرة جالسة مبتسمة بسخرية من غضب أخي مجيد وهي تنظر إليه بعيون عسلية، وانسحبت هاربًا إلى البيت باكيًا باحثًا عن عمتي مستنجدًا بها علها تخفف عني شدة الإهانة التي لحقت بي من قبل أخي أمام الرجال في الساحة، وأمام زوجتي خاصة، ليست أية زوجة!

ظهيرة اليوم التالي عدت إلى الساحة، كانت الشمس حادة، وجدت الأطفال كما البارحة في عالمهم مع زوجاتهم وخيلهم وعُمْلَتِهم وحكاياتهم وبقاليتهم وسوقهم. كانت

زهرة معهم، اقتربت منهم، أسرعت زهرة لاستقبالي، لكــنَّ الأطفال أحاطوا بها قائلين: "أنتِ مطلقة ثلاثًا منه، لا يجوز أن تسكني معه، علينا أن نصنع له بيتًا خاصًّا ولك بيتًا خاصًّــا أيضًا، وسنبحث لك عن زوج آخر وله عن امرأة أخــرى". نظرتُ إلى عيني زهرة كانتا ضاحكتين بحزن، انسحبت على الفور إلى البيت جريحًا، ومن يومها لم ألعب معهم تلك اللعبة التي جعلتني أطلق أغلى ما عندي، الطلاق بالثلاث، بعــد أن تزوجتها للحظات أفسد خاتمتها أخي مجيد!

أحب أخي مجيد.

19

بقالية الاستقلال!

هذا الصباح هو يوم العودة إلى الثانوية، إنـــه الـــدخول المدرسي. السماء غائمة، نحن في نهاية سبتمبر، مطر خفيـــف يسقط بخجل ينعش الروح، يدير عمـــي إدريـــس مفتـــاح السيارة، يدور المحرك ثم يخفق فيسكت، ينتظر قليلا ثم يديره ثانية فيزأر المحرك. لقد قرَّر عمي إدريس إيصالي بسيارته حتى مدينة تلمسان، حيث سيتركني هناك سجين النظام الداخلي الذي سيحرمني من الجلسات العائلية الدافئة، ونكت عمـــي وعمتي الحارة والعفوية، ويحرمني من رؤية عيّـــاش بطقمـــه المخطط وربطة عنقه الحمراء، أكثر من ذلك سأشتاق لرؤية ابنة عمي زهرة الجميلة.

المدرسة مُرّة، يا ربـــي!

على عجل ودَّعت الجميع، شعرتُ بجسد زهرة يرتجـــف

بين ذراعيّ حين عانقتها، أو هكذا بدت لي. ربما أنا الذي كنت أرتجف، شعرت بعَبرة كحبة ملح تسدُّ حلقي، لم أستطع الالتفات إلى الخلف كي أرى مودعي. سارت السيارة بنا بهدوء وتثاقل على الطريق الترابي المُحفر حتى الطريق المعبد الذي بمجرد أن أدركته سارت فوقه بسرعة وتوازن وراحة. كنت فخورًا بعمي وهو يسوق سيارة 404 الجديدة، بيضاء اللون، وأنا أجلس بجواره كأمير. قضينا قرابة الثلاث ساعات للوصول إلى تلمسان. على طول الطريق حدثني عمي إدريس بحرقة عن كيف لوحق من قبل الإخوة ثوار جبهة التحرير الوطني في باريس، وكيف أنهم أطلقوا عليه النار مرتين وأخطؤوه، لا لشيء إلا لأنه كان ينتمي إلى فصيل آخر في الثورة هو "الحركة الوطنية الجزائرية"، التي كان يقودها أبو الحركة الوطنية الجزائرية مصالي الحاج. كان حزينًا وهو يستعيد تلك السنوات من الملاحقات والتهديدات، حيث قرر تغيير مقر إقامته مرات كثيرة، واضطر أيضا إلى تمويه شكله ووضع باروكة على رأسه، وغيّر المقاهي التي كان يرتادها.

كنت أستمع إليه فأكتشف في عمي إدريس شخصًا آخر، مليئًا بالجروح ومفعمًا بالمقاومة والإصرار على رأيه؛ فيزداد إعجابي به واحترامي له ورغبتي في التقرب منه أكثر.

وصلنا إلى الثانوية، بعد أن أخطأنا الشارع المؤدي إليها؛ مما اضطر عمي لعبوره مرتين، وضحك من غبائي لأنني لم أحسن توجيهه في الاتجاه الصحيح. كانت الساعة الثامنة والنصف تقريبًا، تركني وحقيبتي عند باب المؤسسة التربوية، أعطاني بعض الأوراق النقدية، ودعني واختفى كأنما لم يرد أن يطيل البقاء معي أكثر حتى لا أكتشف ضعفه في لحظات الفراق.

دخلتُ الثانوية، أسحب جسدي النحيل سحبًا وكأنني أسحب جثة متهالكة من خلفي، بي شعور بخمول عميق. كان التلاميذ المنتمون إلى النظام الداخلي متجمعين في صف طويل أمام مكتب الحارس العام، في انتظار سحب بطاقة الإقامة والأغطية وأرقام أسرتهم في المرقد العام. لم أستطع التخلص من صورة عمي إدريس وهو يودعني على عجل وفي عينيه شيء من الحزن المشوب بقلق ما، قلق غير مفسَّر.

قبل مغادرته مدينة تلمسان عائدًا إلى قرية قصر المورو، قرر عمي إدريس، دون سابق تخطيط، زيارة مقبرة سيدي السنوسي كي يقف على قبر الزعيم مصالي الحاج ويقرأ فاتحة الكتاب على روحه. بعد سؤال دُلّ على الطريق الموصل إلى المقبرة التي توجد عند مخرج المدينة بمنطقة اسمها "العبّاد". أوقف سيارته عند المدخل الجميل للمقبرة والذي يشبه في

هندسته أحد مداخل القصور الملكية، استقبله أحد الحـــراس، بعد أن حيّاه، سأله عن قبر الزعيم مصالي الحـــاج، التفـــت الحارس يمنة ويسرة وكأنما ليتأكد من أن لا أحد في الأنحـــاء يراقبه، سار بين القبور وتبعه عمي إدريس، دون كلام، انتبه في ما بعد بأن حارس المقبرة أبكم. حين وصـــل إلى القـــبر المطلوب أشار الحارس بأصبعه إلى قـــبر متواضـــع بشـــاهدة مكتوبة بخط أندلسي جميل، سلمه سطل ماء، فهم من إشارته بأن ذاك هو قبر الزعيم مصالي الحاج. انســـحب الحـــارس بسرعة وترك عمي واقفًا على القبر، يقرأ الفاتحـــة ويـــدعو لزعيمه بالرحمة والغفران.

لم يطل وقت الزيارة أكثر من عشـــر دقـــائق، ســـقى الضريح، ثم غادر عمي إدريس المكان بعد أن منح الحـــارس ورقة مالية شاكرًا له على المساعدة، بحركة من اليدين، ركب سيارته وأقلع وحيدًا عائدًا إلى القرية.

الطريق الوطني الرابط بين تلمسان وقريتنا خطرٌ جـــدًّا، خاصة في المقطع ما بين تلمسان ومدينة صبرة، حيث يضـــيق الطريق كثيرًا ويتميز بانعطافات خطيرة تطل على هاويـــات سحيقة وكثيرة. كان عمي إدريس يقود سيارته بكل هـــدوء وحذر، وإذا بشاحنة عسكرية ضخمة تحاول تجاوزه. حاول تفاديها والهروب منها لكن دون جدوى، لتدفع بمركبتـــه إلى

الهاوية، فتسقط من الأعالي متدحرجة نحو مجرى نهر في الأسفل السحيق، عند موقع يُسمّى وادي الزيتون. عندما وصلت السيارة إلى قاع النهر كانت قد تحولت إلى قطعة من خردة حديدية، أسرع بعض الرعاة والفلاحين الذين كانوا متواجدين صدفة بالمكان، وفي لمح البصر، سحبوا عمي من داخل ما بقي من المركبة، كتلة لحمية مهشمة، وصعدوا به التلة إلى الطريق الوطني ليصادفوا سيارة نقل خاصة حملته على الفور إلى المستشفى الذي يوجد عند مدخل مدينة تلمسان، لا يبعد عن مكان الحادث إلا حوالي عشرين كيلومترًا. من قسم الاستعجالات حُوِّل مباشرة إلى قسم الجراحة حيث قرر الأطباء بتر ساقيه الاثنتين. نام في المستشفى ثلاثة أشهر وبعض الأيام، ثم خرج ليعود إلى القرية على كرسي متنقل أهدته له جمعية مساعدة معاقي الحركة.

لقد غادر القرية على متن سيارته 404 الجميلة الجديدة ليعود على متن كرسي متحرك تئن عجلاته أنينًا حزينًا.

عاد عمي إدريس إلى القرية دون أن يفقد ابتسامته ولا نُكتَه. كانت عمتي ميمونة أول من استقبله عند مفترق الطريق الترابي الثانوي المؤدي إلى الدشرة. كانت تدفع بالكرسي المتحرك الذي تعرقل بعض النباتات الوحشية النابتة على الأطراف حركة عجلاته بين الحين والآخر. تجهد عمتي

نفسها فتخلص العجلات وتحرر حركاتها، وتضحك ويضحك عمي قائلاً: "هذه السيارة لا محرك لها يا ابنة أبي!".

"ولا كلاكسون لها يا ابن أبي!". تجيبه عمتي ميمونة، ويضحكان كالطفلين معًا.

الضحك طاقة كبيرة قادرة على أن تهزم اليأس، وكان عمي رجلاً من ضحك.

في جو مليء بالحزن والخشوع تستقبل قرية قصر المورو عمي إدريس دون ساقين، بناته وأبناؤه وأبناء وبنات الأعمام والأخوال، الكبار والصغار، كانوا صامتين، لكنه صرخ فيهم ضاحكًا مقهقهًا: "لا زلتُ حيًّا، حين ترافقونني إلى المقبرة وتضعون عليّ طُنّيْن من التراب، آنذاك ابكوا عليّ". عانقته ابنته زهرة وانسحبت ساترة دموعها الساخنة النازلة من عينين واسعتين جميلتين.

منذ اليوم الأول تكفل عيّاش، بأمر من عمتي ميمونة، بمساعدة عمي إدريس على دفع كرسيه المتحرك في المسالك الصعبة. وهكذا وجد عيّاش عملاً قارًّا بعد أن انتهى موسم تشجير الغابة، يلبس صباحًا طقمه ويعقد له عمي إدريس ربطة عنقه ضاحكًا كعادته على لونها، وعلى بقع الزيت والمرق الكثيرة فوقها. يدخنان معًا سيجارة واحدة يتناوبان

عليها، نَفَسًا بنَفَس، وهما يشربان قهوة الصباح، ثم يدفع عيّاش الكرسي به إلى الباحة وسط القرية، لتستقر بهما الجلسة وليستكملا حديثهما عن السفر والنساء تحت شجرة التين العتيقة التي تثمر نوعين من التين، بعض فروعها تعطي تينًا أبيض وبعضها الآخر تينًا أسود، وبشهادة جدي الذي، على الرغم من انهيار حالته الصحية، لم يفقد شيئًا من ذاكرته. لا أحد يذكر أن الشجرة تم تطعيمها يومًا ما، مع ذلك تعطي ما تعطيه شجرتان. الشجرة بعمر جدي أو أكثر، وهو الذي كان يقول: "كبرنا معًا، وسأرحل وأتركها شاهدة على أيامي التي صرفتها إلى ظلها، أيام بيض وأخرى سود وأخرى لا لون لها".

تحت شجرة التين المئوية، يحلو الحديث ويطول ويتشعب بين عمي إدريس وعيّاش. يستعيد عمي اليوم الذي عثر فيه على عيّاش نائمًا متعبًا ممددًا عند سور القرية الخارجي مستغربًا لباسه النسائي، ويتذكر يوم ودَّع الجميع من أبناء القرية قبل اندلاع الثورة التحريرية، تحت هذه الشجرة، مغادرًا إلى فرنسا بعقد عمل مع شركة بناء وتجهيز ضخمة عابرة للقارات، التي لم يطل عمله بها لينتقل إلى شركة إعلانات بعد أن تعلم الفرنسية وأتقنها في زمن قياسي، مستذكرًا دروسه الأولى في مدرسة الراهبات في القرية.

يفتح عمي إدريس قلبه لعيّاش، فيحدثه عن حبه لزوجته سكينة التي كانت بمثابة أمه، تغضب منه وتغار عليه وتخاصمه، ولكنها في المساء تحتضنه وتقبله على رأسه. ينامان فيشتركان في الحلم نفسه، حلم أن يكبر الأولاد والبنات، ويكون لهما أحفاد وحفيدات بالجملة يرقصان في أعراسهم وأفراحهم.

يحكي عن ذكرياته مع سكينة ويبكي.

بكاء الرجال كزلزال الجبال.

يومًا بعد يوم، أصبح عيّاش ظلاً لعمي إدريس لا يفارقه، لا ينفصلان إلا ساعات النوم. أضحيا الوجه والقفا لقطعة واحدة، فكان على عيّاش أن يفتح نصف باب قلبه لإدريس، أن يعترف له بما يشعر به تجاه ميمونة التي بدأت تسكن قلبه وتشوش سكينته. ضحك عمي من كلام عيّاش معلقًا: "لم تعد حكايتكما خفية على أحد من ساكنة القرية، الجميع يعرف ذلك إلا أنتَ يا عيّاش، أنتَ آخر من يعلم عن حكايتك التي تصنعها يوميًّا بيدك وقلبك؟". وانفجر ضاحكًا، وإذا بعمتي ميمونة تطلع من العدم قادمة حاملة كعادتها في مثل هذه الساعة برّاد الشاي، شاي العاشرة. وضعت الصينية على الأرض ثم نظرت إلى جذع شجرة التين العتيقة معلقة: "النمل يأكل قلبها كما يأكل قلبي الندمُ منذ عرفتك

يا عيّاش، عليك أن تسحب هذه الربطة من عنقك كي أغسلها لك. لقد أصبحت كلها بقعًا من زيت ومرق، وإلا سأخنقك بها، ستأكلها يومًا من كثرة مرقها مع قطعة خبز!". تركتْهما لشايهما، أطلقت ضحكة طويلة مسموعة وانصرفت وسط رنين خلخالها الفضي. يُعرف مزاج عمتي ميمونة من خلال موسيقى إيقاع رنة خلخالها، فساعة الغضب لها موسيقى وساعة الفرح لها طبع آخر وساعة الخوف وساعة الحزن وساعة الحيرة وساعة الانتظار..

بصمتٍ شربا الشاي، ثم أخذ الحديث طابعًا جديًّا، حيث بدأ عمي إدريس عرض فكرة مشروع على عيّاش، مشروع يراوده منذ خروجه من المستشفى مبتور الساقين، والمتمثل في الرغبة في استثمار ما جمعه من مال في المهجر، وكذا ما حصل عليه من منحة التعويض عن الحادث الذي قدمته له الشركة الفرنسية التي يشتغل لديها بفتح محل تجاري، إنشاء أول بقالية صغيرة تريح ساكنة قرية قصر المورو والقرى والمداشر المجاورة من التنقل حتى القرية الرئيسة لقضاء حاجياتهم من الأمور اليومية الاستهلاكية. وجد عيّاش فكرة المشروع جيدة، وفي المساء نقلها لميمونة التي فرحتِ لذلك، وهي التي بدأت تشعر بأن إدريس أصبح يهذي كثيرًا في الليل، وأن حالته النفسية في انهيار شديد، لذا فإن مشروعًا

مثل هذا قد يملأ يومه ويشغله، وهو الذي كان كله حركة ومقاومة بالضحك والتفاؤل.

بعد أسبوع، بدأ عمي إدريس في تجسيد الفكرة؛ فطلب من أحد البنائين أن يبني له غرفة صغيرة اختار لها مكانًا على قطعة أرض عائلية، عند مفترق الطرق التي تؤدي إلى القرية الرئيسة، التي تبعد حوالي ساعة على ظهر بغلة. أقيم البناء في غضون ثلاثة أسابيع، وقد ساعد في إنجازه الكثير من أبناء القرية، وبعد أيام قليلة تم تجهيزه بالرفوف والكونتوار، لتصل البضاعة بعد ذلك بأيام، ما يحتاجه أبناء القرى والضواحي من زيت وغاز وصابون وقهوة وسكر وملح وشمع، وبعض علب المصبرات كمعجون المشمش والبرتقال وعلب الشوكولاتة والحلوى والعلكة وأمشاط النساء وغيرها.. بمساعدة عيّاش تم ترتيب السلع على الرفوف، وفي عشاء عائلي موسع أعلن عمي إدريس عن فتح بقاليته التي سماها "بقالية الاستقلال".

بقالية الاستقلال!

هكذا وجد عمي إدريس نفسه يقضي نهاره، من الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل، جالسًا خلف كونتوار بقاليته دون أن يغادر كرسيه المتحرك، يستقبل هذا ويتحدث إلى ذاك، يقرض هذا ويمهل ذاك، الرجال والنساء والأطفال. لقد

أصبحت "بقالية الاستقلال"، خلال شهر، وجهةَ الجميع لاقتناء ما يحتاج إليه، ولمعرفة أخبار العالم أيضًا.

مع مرور الأيام، توسع نشاط البقالية، إذ أمر عمي إدريس بتجهيز غرفة ثانية لتكون مقهى استراحة، يتوقف عندها سائقو الشاحنات والحافلات والمسافرون للاستراحة وشرب فنجان قهوة أو شاي أو لتناول وجبة خفيفة، وقد تولى عيّاش تسيير المقهى الذي تم تأثيثه بمجموعة من الطاولات والكراسي البلاستيكية.

استراحة الاستقلال!

حين تمطر كان على عيّاش أن يبذل جهدًا كبيرًا في تنظيف عجلات الكرسي المتحرك من الوحل بعد كل متر أو مترين، وهما يسلكان طريقهما إلى البقالية صباحًا أو وهما عائدان منها ليلاً. مع ذلك تغيرت حياة الرجلين إذ أصبحا محاطين بالناس من الزبائن الغرباء القادمين من بعيد، عابري السبيل، أو من أبناء القرى المجاورة.

لقد نسي عمي إدريس إعاقته واستعاد ضحكاته وتعليقاته الساخرة على الجميع، انطلاقًا من عيّاش وربطة عنقه المُمَرَّقة والمُزَيَّتة التي سيأكلها ذات يوم إذا ما جاع!

كنت حين أعود من الثانوية لقضاء أيام العطل المدرسية بين الأهل، أسعد بقضاء أكثر أوقاتي إلى جانب عمي إدريس

بالبقالية، أساعده في خدمة الزبائن، وأيضًا في ترتيب السلع على الرفوف. وكان عمي سعيدًا لوجودي إلى جانبه، وقد اعترف لي ذات يوم وبكثير من الحذر والخوف أن حادثة المرور التي تعرض لها وهو عائد من تلمسان يقود سيارته، لم تكن حدثًا عاديًّا ولا بريئًا، بل إنه يعتقد أن الشاحنة التي داهمت مركبته ودفعت به إلى الهاوية كانت تلاحقه وتراقبه، منذ لحظة مغادرته مقبرة سيدي السنوسي بعد أن ترحَّم على قبر الزعيم وسقى روحه بدعاء وترابه بسطل ماء بارد. يذكر أنه كلما حاول تجنب الشاحنة العسكرية بالتزام أقصى اليمين كي يفسح لها الممر للتجاوز كانت تلتصق به أكثر وأكثر كي توصله إلى حافة الهاوية. إنها محاولة اغتيال، وهي تدخل في إطار سياسة تصفية بقايا مناضلي حزب الشعب ومناصري أبي الحركة الوطنية الجزائرية مصالي الحاج، فإذا كنت قد نجوت من محاولة الاغتيال أيام الثورة فها أنا ذا ألاحق أيام الاستقلال.

تعرفت لاحقًا على أحد معارف حارس مقبرة سيدي السنوسي حيث يرقد جثمان الزعيم، والذي أقمت معه علاقة صداقة، حيث كان يدرس معي في نفس القسم، وقد زرته مرات عديدة في بيته خاصة أيام الآحاد، حيث كان يسمح لنا نحن التلاميذ الخاضعين للنظام الداخلي بالخروج للتنزه في

المدينة. وقد أكد لي أن حارس المقبرة العم شريف بن قلفاط كثيرًا ما استُدعي لمخفر البوليس العسكري، حيث يُطلب منه معلومات عن كل الذين جاؤوا للترحم على روح الزعيم، بل إنهم كلفوه بالتجسس على زوار القبر وتسجيل معلومات عنهم وعن عائلاتهم، وقد منحوه آلة تصوير يابانية دقيقة لأخذ صور لجميع زوار قبر مصالي الحاج.

تبدل عمي إدريس كثيرًا، بدت عليه الشيخوخة بسرعة، ومع ذلك لم يفقد قوة السخرية فيه ولا حبه للناس. أما عيّاش الذي غرق في تسيير مقهى "استراحة الاستقلال" المجاورة لـ "بقالية الاستقلال"، فما عاد يخفي حبه لعمتي ميمونة، ولكن إحساسًا خفيًّا كان يمنعه من طلب يدها من جدي الذي بدأ يفقد ذاكرته الشمِّيّة، وما عاد يتعرف إلى زوّاره من روائحهم، حتى أنا ما عاد يميزني، لقد انتهى بانتهاء قوة حاسة الشم لديه، وكانت تلك بمثابة عصاه الأخيرة التي يتكئ عليها في علاقته بالناس، بالعالم الخارجي.

20

رسائل الحب الأولى!

الرسائل الأولى يجيء بها الحب الأول. تلك الرسائل الأولى لا يُنسى كلامُها أبدًا.

للمراسلات الأولى عطرها، ولها رعشتها وسهرها!

بفارغ الصبر وكثيرٍ من اللهفة كنا ننتظر الرسائل التي تأتينا من الأهل أو من صديقات كانت غالبيتهن وهميات. كنا نحصل على عناوينهن من البرنامج الإذاعي "نادي التعارف"، على أمواج إذاعة بي. بي. سي بلندن، أو "حديقة الأحباب" بإذاعة طنجة. العيش بالقسم الداخلي ثقيل، والبحث عن أية نافذة مفتوحة، ولو كاذبة، توصلك إلى العالم الخارجي هي تنفيس ووهم حرية.

رسائل النساء وهم جميل.

كان الحارس العام السيد عمر بن دياب يسلمنا الرسائل

التي تصلنا بعد أن يقرأها واحدة واحدة. ولأننا كنا على علم بأنه يطلع على كل أسرارنا، كان علينا أن نختار بإتقان العبارات التي نستعملها في جميع مراسلاتنا، خاصة في ردودنا على رسائل الفتيات، عبارات نسرقها من الكتب، فيها البسملة والاحترام والدعوة للمحافظة على الصداقة البريئة والأخوة الحميمة والعلاقات الثقافية وتبادل الأفكار! أذكر مرة أن الحارس العام مزق رسالة وصلتني من مراسلة بلجيكية أمام عيني، دون أن يسمح لي حتى بالاطلاع ولو على عبارة واحدة منها، ثم أشبعني شتمًا وصفعًا أمام خلاني من التلاميذ. يبدو كما فهمت من زعيقه ونباحه بالفرنسية أن الفتاة كانت على غير أخلاق في مخاطبتها لي، وأنها بالغت في استعمال كلمات غير مسموح وصولها إلى تلميذ هو احد من أبناء شهداء أو مجاهدي الثورة الجزائرية المجيدة، يعيشون في نظام داخلي مجانًا؛ حيث الدولة العادلة الاشتراكية هي من يتولى إطعامهم وتدريسهم وإلباسهم والتكفل برعايتهم الصحية. الكلمات التي جاءت في الرسالة وأغضبت الحارس العام وأخرجته عن طوق عقله، كانت كما يبدو من تعليقه عن الحب والوصال ورغبة اللقاء وزيارة الجزائر. لم أنم ليلتها، حلمت بمراسلتي التي تسمى "كلير"، تخيلتها تدق الباب الخارجي للمرقد ليلاً، تصعد الطابق الأول للبحث عني في

الظلام، تعرف جيدًا رقم سريري، السرير رقم 75، وتعـــرف جيدًا أنني فاتح عينيّ وأنني أنتظرها بفارغ الصبر كما جاء في رسالتها التي لم أطلع عليها، تتسلل كالدفء إلى ســـريري، وننام في حضن بعضنا بعضًا حتى الصباح، ثم أرى يدًا ترفـــع الغطاء عنا ونحن عاريان، أنظر فإذا بوجه منير يشـــبه وجـــه عمتي ميمونة يخبرنا أن الحارس العام عمر بن دياب قد مات.. كنت سعيدًا في المنام، مرتاح البال، وأنا أتلقى خـــبر مـــوت الحارس الذي مزق رسالتي وهزّأني أمام التلاميذ.

صباحا، كان السيد عمر بن دياب أول من ألقاه كاللعنة واقفًا عند مدخل المطعم، ونحن نسرع الخطو لتناول فطـــور الصباح وهو يطلب منا أن نفتح أفواهنا واحدًا واحدًا، كـــي يتأكد من أننا فركنا أسناننا البارحـــة بالفرشـــاة ومعجـــون الأسنان الوطني "بيفليور"، ويدقق في نظافة ياقة قمصاننا التي كانت تتبرع لنا بها المؤسسة التربوية، تمنح كل واحد منا ثلاثة قمصان في السنة، قميصان شتويان وقميص ربيعي. مـــررت أمامه وقد نسي حكاية الرسالة التي مزقها البارحة أمام عـــيني وفي حضور التلاميذ، ثم خاطبني قائلاً: "نتائجك ممتازة، أنت تلميذ نموذجي! على الآخرين مـــن الصـــعاليك أن يحـــذوا حذوك". لم أكن متيقنًا أن الحديث كان موجهًا إليّ أنا الذي جعل منه البارحة مسخرة أمام الجميع. أسرعت إلى طاولتي،

شربت قهوة بالحليب على عجل مع قطعة خبز بالمربى، هذه المربى لا تشبه مربى جدتي التي كنا نسرقها أصبعًا أصبعًا من بوقالها الزجاجي أو من جرتها الخزفية، ثم غادرت المطعم وأنا أستعيد بتلذذ حلم الليلة التي قضيتها مع مراسلتي البلجيكية كلير، حلم جميل لكن نهايته السعيدة التي هي موت الحارس العام لم تتحقق.

شعرت وكأن صورة مراسلتي كلير البلجيكية بدأت تنسيني صورة زهرة ابنة عمي إدريس، بالتوازي مع ذلك أخذت أحن إلى رؤية أخي مجيد الذي تخرج مهندس فلاحة، وعُيِّن مشرفًا على مزرعة للتسيير الذاتي. حب غريب لأخي بدأ يسكنني، ورغبة في أن يزورني وأن يحدثني عن حبه لزهرة. لن أحقد عليه فهو أولى بها مني، فأنا الأصغر وهي تريده هو؛ لأنها ترى فيه رجلاً تتمناه زوجًا حقيقيًّا لها، ينجبان معًا أطفالاً ويربيان حيوانات، ويعيشان في غرفة فيها سرير واسع ومطبخ بأوان ونار لطهي أكلهما، ويغليان عليها ماء لتحضير القهوة والشاي. أما أنا فكنت في عين زهرة طفلاً يقاسمها بيتًا مرسومًا على الأرض في شكل مربع أو مستطيل. أنا في عينيها الطفل، مدلل عمتي ميمونة، الذي تسحبه على حين غرة من وسط الساحة إلى غرفة الاستحمام، فتجرده من ثيابه كاملة وتغسل له ظهره وتصوبن له قضيبه وهو أمامها مستسلم دون حراك.

أنا الحلزون العاري، بوطشل، البزّاق.

بلغت الخامسة عشرة وظلت عمتي ميمونة تصر على أن تكون هي من يحممني، يحك أطرافي بالحجر الأحرش ويصوبن جسدي كله بليفة الصابون الفاسي!

في القسم الداخلي بالثانوية، تُوزّع علينا الرسائل مرتين في الأسبوع، يوم الاثنين ويوم الخميس، أما الرسائل التي تصل ما بين اليومين فعلى أصحابها أن ينتظروا تسلّمها حتى الموعد الموالي. كان هذان اليومان، بالنسبة لي وللآخرين من التلاميذ، مثيرين. كنت أنتظر ساعة توزيع الرسائل بشغف مصحوب بخوف من مضامين رسائل كلير الجريئة، سعادة انتظار رسالة لا تضاهيها سعادة أخرى، انتظار أن يُنَادَى عليك من قبل الحارس العام ليسلمك رسالة قادمة من أوروبا، ظرف أبيض بطابع بريدي يحمل رسم شخصية تاريخية أو ألوان علم أجنبي، يحتوي الظرف على بطاقة بريدية جميلة، تسرع إلى ركن بالساحة، تجلس على مقعد حجري، تقرؤها وحدك في خلوة، ثم تعيد قراءتها ثانية، ثم تشير إلى الأصدقاء ليجتمعوا من حولك، ببهجة تقرأ لهم بعض العبارات وتخفي الأخرى، بين أيدي الأصدقاء وتحت عيونهم المفتوحة باتساع تنتقل البطاقة البريدية التي تمثل مدينة جميلة بشوارع وحدائق منظمة وساحات مدهشة، ويتمنى كل واحد منا أن يسافر

ذات يوم إلى مثل هذه الأماكن كي يعيش هناك بحرية، بعيدًا عن سجن النظام الداخلي.

حين عدت إلى قرية قصر المورو لقضاء العطلة الربيعية، كنت سعيدًا كالعادة أن أقضيها ببقالية عمي إدريس، أساعده وأرتب سلعه وأشرب فنجان قهوة أو كأس شاي، على عجل، بصحبة عيّاش الذي لم يغير طقمه ولا ربطة عنقه التي زادت بقعُها، وقد أصبح شخصية يتردد اسمها بين جموع قوافل سائقي حافلات نقل المسافرين، وسائقي الشاحنات المقطورة الخاصة بنقل البضائع التي تأتي من مدن بعيدة في الشرق أو في الغرب، من الرباط ومراكش وقسنطينة والجزائر العاصمة وبجاية وتونس.

مع مرور اليوم الثالث الذي انقرض بسرعة من العطلة، والتي كنت أعد أيامها عدًّا، أيام العطل تمر في رمشة عين، لا أريد أن أفرط في ساعة من ساعات العطلة المدرسية دون الاستماع إلى حديث عمي إدريس والاستمتاع برفقته، مع ذلك كنت كلما رأيته أو جلست إليه إلا وأشعر بالذنب تجاهه، وكأنني أنا مَنْ كان السبب فيما حصل له من حادث السير، الذي من جرائه بترت ساقاه وضاعت السيارة الجميلة التي لم نستمتع بها كما كنا نحلم، فلولا مرافقته لي ذلك اليوم إلى الثانوية لما حصلت له تلك الكارثة. مع مرور اليوم

الثالث، وعلى الرغم من مراقباتي الدقيقة لكل حركة في القرية لم ألاحظ أثرًا لوجود ابنة عمي زهرة. لم أتجرأ أن أسأل عنها عمي إدريس، خفت أن تكون قد تعرضت لأذى، ولكن عمتي ميمونة التي تقرأ كل شيء في عيني قبل أن يقوله لساني سحبتني في عشية اليوم الثالث إلى المطبخ، وقالت بصوت عالٍ ربما كي تحرجني أمام عمي إدريس: "لقد رحلوا بالغزالة، سرقوا زهرة صاحبة العيون الشهلاء العسلية، حب المراهقين الذين يقضون أيامهم في المدن جالسين على الكراسي الوثيرة، أو متمددين على مطارح الصوف أو الحرير الناعم لا يمكنه المحافظة على بنات القرية الجميلات، الغزالة خطفها الصقر أيها الغبي". سكتّ، شعرت وكأن الخطاب لم يكن موجهًا لي بقدر ما كانت تقصد به أخي مجيد، وانسحبت إلى بيتنا دون عشاء، صادفت أخي مجيد عند مدخل منزلنا كان هو الآخر في حيرة، وربما يكون قد سمع من عمتي أضعاف ما أسمعتني إياه، فهو الأكبر سنًّا وهو المؤهل لحماية الغزالة زهرة أكثر مني.

علمت في اليوم التالي من عيّاش بأن زهرة قد تزوجت بشاب اسمه نور، يقيم بدشرة غير بعيدة عن قريتنا، قرية قصر المورو، ترك المدرسة منذ الشهادة الابتدائية التي أخفق في الحصول عليها، ليقرر والده إلحاقه عاملاً في تنظيف إسطبل

خيول المزرعة، ليصبح بعد فترة مربيًا للخيول الأصيلة، وفي الوقت نفسه ضاربَ طبلٍ محترف في فرقة فلكلورية تحيي حفلات الأعراس في الصيف.

لم أكن أتصور بأن ذاك الجمال كله سيذهب ليعيش في بيت ذلك الشاب الغبي الذي لم يتمكن من النجاح حتى في امتحان الشهادة الابتدائية، والذي تبين لاحقًا أن له إمكانيات وقدرات وذكاء خارقين خارج التعليم والمدرسة والكتب، الكتب ليست الحياة! ومقولة جدي حمديس: "العلم نور والجهل عار" مشكوك في صحتها! ففي فترة وجيزة تمكن نور من جمع ثروة لا بأس بها من مزرعة تربية الخيول التي كان يتم تهريبها إلى المغرب، ومن هناك تصنع لها شهادات ميلاد أحصنة أصيلة لتباع في إسبانيا والبرتغال وإيطاليا والخليج.

ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى تحصل على عضوية الانتماء إلى الحزب الوحيد في البلد، ليترشح للانتخابات البلدية ليصبح عضو المجلس البلدي، ثم لا يتأخر في القيام بانقلاب داخلي على رئيس البلدية متهمًا إياه بأنه ابن حركي، ليعزل هذا الأخير فيُعيَّن هو في مكانه، وبهذا المنصب أصبح أحد أعيان الناحية، يحسب لاسمه حساب في الحفلات الرسمية والأعياد الوطنية والدينية!

هذا الصباح، ونحن في مقهى "اســتراحة الاســتقلال"، أخي مجيد وأنا وبعض شباب القرية، نحتسي كؤوس شاي من صنع عيّاش ونتبادل الحديث عن شأن المدينة والحيــاة فيهــا وفتياها، إذا بالسيد نور رئيس البلدية يمر بالمكان صدفة يقود سيارة البلدية. حيَّانا، وبنوع من الاستخفاف طلب من أخي مجيد، الذي كان منافسه على زوجته زهرة، أن يكتــب لــه خطابًا يلقيه على الجماهير بمناسبة عيد الاســتقلال أو عيــد اندلاع الثورة المجيدة، أخفض أخي رأسه ولم يرد، انســحب من المقهى منهزمًا.

لقد أنستني هزيمة أخي أمام نور زوج زهــرة ورئــيس البلدية جميع مشاعري تجاه ابنة عمي، وأصبحت أحب أخي كثيرًا وأصبح هو الآخر يبادلني ذات الحب وأكثر. وأذكــر أني، لست أدري لماذا وكيف، أهديته كتابًا للقراءة لأخفف عنه صدمة الإهانة. كانت رواية "أنا كارنينا" لتولســتوي في ترجمتها الفرنسية، وقد غرق في الرواية من لحظتــها محــاولاً نسيان زهرة وإهانة زوجها نور له، وربما يكون هذا الكتاب هو الذي أنقذ أخي مجيد من نفق الهزيمة في تلك العطلة، ومن يومها أصبح قارئًا نهمًا للكتب الأدبية مــع أن اختصاصــه هندسة بترولية.

يهان مهندس بترول أمام منظف إسطبل خيل!

21

لا أريج للقهوة!

وصلت الرسالة يوم الاثنين زوالاً، ولكني لم أستلمها إلا يوم الخميس ليلاً، بعد تناول وجبة العشاء، سلمني إياها الحارس العام عمر بن دياب وعلى وجهه هدوء يشبه مسحة الحزن. من نظرته توقعت أنها الرسالة التي أنتظرها منذ سنتين، منذ أيام وشهور وأنا أنتظر رسالة من هذا القبيل. رسالة موجهة إليّ تثير الحيرة والحزن لدى الحارس العام الشرير؟ كان الظرف مفتوحًا، كالعادة، سحبت الرسالة بهدوء وكأنما قرأت ما جاء فيها حتى قبل أن أقرها، فنظرة الحارس العام قالت كل شيء، وهو الذي كنا نقرأ فحوى الرسائل في حركات عينيه القاسيتين قبل أن نقرأها في النص والكلمات:

"باسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيد المرسلين..

أما بعد ابني الكريم، بعد السلام والشوق إلى النظـــر في وجهك العزيز، أقول لك: كل نفس ذائقة الموت ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام. لقد تُوفِّي جدك الحاج حمـــديس البارحة صباحًا وتم دفنه بعد صلاة العصر من اليوم نفسه.

إنا لله وإنا إليه راجعون.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

طويت الرسالة، وضعتها في الجيب الداخلي لمعطفـــي، قلت في نفسي: "دُفن في وقت تناول قهوة العصـــر المحبوبـــة لديه، هو أفضل وقت لديه على مدار ساعة اليوم. أنا أيضًـــا مثله، أحَبُّ أوقات النهار لدي هي ساعة العصر، قبل غروب الشمس بقليل. كفكفت دمعة ساخنة، وشعرت باختنـــاق، غسلت وجهي بالماء البارد ثم عدت إلى قراءة رواية "وداعًـــا يا غولساري" لجنكيز أيتماتوف، رواية كتبـــت بإحســـاس إنساني عميق، حكاية حب بين الراعي طنبـــائي وحصـــانه غولساري. كنت أقرأ بعض فقراها وأبكي، محاولاً مطـــاردة خبر موت جدي حمديس الذي لطالما أحببت شرب القهـــوة معه، ولطالما قدته حين فقد بصره لقضاء حاجاته، كان يحبني وكنت أحبه أكثر. كنت أشبهه أو أشبه أبـــي الذي بدوره يشبهه!

مات حصاني أنا، مات غولساري أنا!

الجد حصان أصيل!

كلما فكرت في خبر موت جدي حمديس أخاف أن أفقد عمتي ميمونة. لست أدري لماذا ظل هذا الشعور يهيمن علي باستمرار؟ هل كنت أنتظر رسالة أخرى قد تنقل لي نبأ موت عمتي؟

وأنسى مراسلتي البلجيكية كلير نهائيًّا.

حين عدت إلى القرية لقضاء العطلة المدرسية، أول من سألت عنه وأسرعت لرؤيته هي عمتي ميمونة، خفت أن تكون هي الأخرى قد ماتت بعد موت جدي وزواج زهرة. حين استقبلتني ببشاشتها ورنة خلخالها تسبقها فرحت، نسيت موت جدي، عانقتها بقوة وكأنني أراها لأول مرة وشممت فيها رائحة حطب الديس الذي تحمص عليه القهوة. سحبتني إلى الغرفة التي خرجت منها، طلبت مني أن أجلس على وسادة، أنزلت صينية القهوة بسرعة عليها فنجان بدون رسوم وقطعة خبز وقطعة زبدة. لم تكن لي شهية لذلك، مع ذلك، وتلبية لرغبتها، شربت نصف ما في الفنجان وقضمت طرفًا من قطعة الخبز الساخن، عرض عمتي لا يُرد، كانت مأخوذة بشيء تريد أن تفضي به إليّ، ثم دون مقدمة وبكثير من التأثر الذي غير ملامحها كلية حتى أصبحت لا تشبه

نفسها، قالت لي وبنفس متقطع وكأن الحادثة وقعت قبل دقائق إن جدي حمديس وجد ميتًا منتحرًا؛ فبعد أن فقد حاسة الشم نهائيًّا بعد فقدان البصر والسمع، ولم يعد يميز الناس من حوله، أصبح يعيش في اللاوجود، في اللامعنى، في اللامكان، محاصرًا في قمقم يشبه صحراء مفتوحة على العدم. وبدأ يشعر بخوف يشبه خوف الأطفال، فيبكي بكاء مريرًا، ويقوم في الليل وفي النهار من شدة الكوابيس. ويبدو أن فقدانه لإمكانية تمييز رائحة أمي خاصة هو من عجّل في إقدامه على ما أقدم عليه. كانت رائحة أمي هي آخر ما ربط بين جدي وهذا العالم، وقد وُجد ذات صبيحة معلقًا في حبل مربوط إلى الحلقة الحديدية المغروسة في سقف هذه الغرفة، وأشارت إلى الحلقة وإلى السقف، حلقة حديدية تستعمل لمساعدة النساء على شد الحبل ساعة الولادة. "من مهمة المساعدة على الولادة، منح الحياة، إلى مهمة المساعدة على الموت!". قلت في نفسي، ونظرت بعمق إلى الحلقة الحديدية التي لا تزال في مكانها بالسقف كأنها تنتظر جسدًا آخر سيتدلى منها قريبًا، وتصورت جسد عمتي ميمونة مدلى منها. كانت قصيرة، بجسم متوازن بدون زوائد، وبرنة خلخالها في قدمها وبساق مكشوفة قليلاً، كيف يرن الخلخال في قدم عمتي ميتة؟ ثم تخيلتُني معلقًا من عنقي هناك.

لم تحزن جدتي على موت جدي، بل إنها بدأت تستعيد عافيتها، تتسوك وتتعطر، وتتفحص ملامح وجهها في المـــرآة صباح مساء، لا تفارق المرآة صدرها حيث كانت تضعها بين ثدييها، وبعد شهر من موته بدت جدتي تامولت أصغر مـــن عمرها بكثير.

أخفيتُ دمعة وغادرت الغرفة، رافقتني عمتي حتى عتبـــة باب المنزل ثم استدركت قائلة وهي تهم بـــالعودة مســـرعة: "نسيت عجين الخبز فوق النار، نسيان الخبز على النار دليـــل على اقتراب موعد الموت، النسيان أخو النوم والنـــوم أخـــو الموت".

في اليوم التالي لوصولي إلى القريـــة، صـــباحًا، قـــررتُ الذهاب إلى المقبرة للوقوف على قبر جدي. كـــان الوقـــت حزينًا في داخلي، سرتُ وحيدًا في الطريق الترابـــي الموصل إلى مقبرة الدومة، لكنني فجأة وجدت نفسي أقـــف عنـــد منتصفه. نظرت إلى السماء التي كانت قريبة والتي يمكن لمسها بأطراف الأصابع، وجدتها غائمة وحزينة مثل قلبـــي، وكأنما تستعد للسقوط فوق رأسي، عدت أدراجي، رجعـــت مـــن منتصف الطريق، قلت وأنا أحدق في جيش النمل الذي يسير بنظام: "لو لم تكن الحلقة الحديدية في سقف الغرفة التي كان ينام بها، كان جدي سيعيش عامين آخرين، تبعًا لصحته ولما

صرح به لي "سأعيش قرنًا وعامًا فوق القرن"، بحساب بسيط كان سيموت يوم 28 مارس من العام.. أعتقد أن من وضع الحلقة الحديدية كان يريد اغتيال جدي! كان يعلم مدى هشاشة أحاسيسه. هي مؤامرة ضد جدي حتى ولو أن الحلقة الحديدية وجدت في السقف منذ تشييد الغرفة التي يعود بناؤها إلى قرون. كانت الغرفة الأساسية التي عليها تمت توسعة القصر ليصبح حوشًا ثم دشرة ثم قرية، قصر الجد الأول المورو الذي جاء هاربًا من ملاحقة الملكة "إيزبيلا". مرارًا حاولت أن أطرد فكرة المؤامرة ضد جدي، وأكرر بيني وبين نفسي، وبصوت عالٍ أن الحلقة وجدت يوم بنيت الغرفة وهي عادة معروفة حيث جميع الغرف في كل المنازل بها مثل هذه الحلقة.. لكن عبثا!

حين دخلتُ على عمي إدريس في بقاليته، ابتسم لي من فوق كرسيه المتحرك، ثم قال: "أكيد أنك لم تصل حتى المقبرة، عدت من منتصف الطريق". قلت له: "الأمر ليس مستعجلاً، سأزور قبره بعد سنتين، لقد استعجل موته بعض الشيء". لم يستغرب عمي إدريس موقفي ولا حديثي، ناولني كأس شاي قائلاً: "كنت على يقين بأنك ستعود من منتصف الطريق. هل شاهدت النمل كيف هو منظم في السير وفي العمل وفي التعاون؟". ثم نسي موضوع أبيه، أي جدي، وبدأ

يحدثني عن تراجع النظام عن قوانينه التي سنَّها فيما يتصل بقراراته بتأميم أراضي الفلاحين. لقد استعاد كثير من الفلاحين أراضيهم التي تم تأميمها وطردوا منها من تملكها بموجب قرارات الثورة الزراعية. كنت أستمع إليه وأفكر في تفاصيل رواية "وداعًا يا غولساري" لأيتماتوف. ثم فجأة انفجرت ضاحكًا، استغرب عمي هذه النوبة الطويلة من الضحك، ثم سألني: "ما بك؟ جننت؟". قلت له وأنا لا أزال أضحك: لقد أثارتني تسمية البقالية بـ "بقالية الاستقلال". ثم غرق معي هو الآخر في نوبة الضحك، كان يضحك من قلبه وهو يردد بالفرنسية:

Épicerie de l'indépendance, Épicerie de l'indépendance, Épicerie de l'indépendance!!!

نعم لقد أصبح الاستقلال بقالية!

إننا نعيش في بقالية الاستقلال!

دون سابق إنذار دخل علينا وبطريقة مفاجئة السيد نور رئيس البلدية وزوج زهرة. كان متبوعًا بمساعدين له، كل واحد منهما يحمل بيده محفظة جلدية. قال نور بصوته الأنثوي وهو يهز كتفيه كأنما يستعد للدخول إلى حلبة رقص جماعي: "لقد انتهى نظام الكفار، طُويت صفحة الاشتراكية وانتهى كلام المراهقين. لقد طلب منا البدء في إعادة عقود

الأراضي لمالكيها الأصـليين". حـين رآني جالسًـا أراد أن يذكرني بهزيمة أخي مجيد قائلاً: "لقد ولد عندي صبـي منذ شهر وأطلقت عليه اسم مجيد، عله يكون فالحًا، مهندسًـا في البترول مثل السي مجيد..". وضحك بسخرية بادية، وتركنا وخرج ليجلس على طاولة مع مجموعة من سائقي الشاحنات المقطورة، الذين كانوا يحتسون الشاي في محل عيّاش الملاصق لبقالية عمي إدريس ويتحدثون بأصوات مرتفعـة. لا أحـد يسمع أحدًا، يرسلون نكتًا جنسية سخيفة وأخرى سياسية.

تمنيت لو أن أخي مجيد كان موجودًا هذا الصباح ليعرف بأن زهرة أنجبت مولودًا سمته باسمه وفاء لحبها له. ربما، لأول مرة لم أشعر بنار الغيرة تأكلني وأنا أسمع بخبر تسمية مولـود زهرة الأول باسم أخي. ويقال والعهدة على عمتي ميمونـة التي أكدت لي ذلك لاحقًا، وهي التي لسانها لا يخطئ في نقل مثل هذه الأمور أبدًا: إن زهرة هي التي أجبرت زوجها نور على قبول هذا الاسم الذي اعترض عليه في البداية، لكنـها أصرت وأقسمت أن تترك له الصبـي والدار وأن تعـود إلى بيت أبيها إذا ما هو رفض تسمية المولود باسم مجيد.

بسعادة كبيرة شعرت بأنني أتنازل عـن غـيرتي وعـن مزاحمة أخي مجيد على قلب زهرة. لم تدر في ذهني مطلقًـا فكرة أن تطلق زهرة اسمي على وليدها الجديد. إنه جزء مـن

وفائها لأخي، بل إنني كنت أشعر بالسعادة كلما تناقل الأهالي في قريتنا والقرى المجاورة تفاصيل حكاية مباغتة زهرة زوجة نور رئيس البلدية وأخي مجيد في خلوة غرامية. يقال إن هذه الأخيرة كلما حلت عطلة الشتاء أو الربيع أو الصيف تفتعل مرضًا، ثم تطلب من زوجها أن يوصلها إلى بيت والدها كي ترتاح هناك بضعة أيام. جميع من في قرية قصر المورو أصبح يروي حكاية علاقة زهرة بأخي مجيد، وكل واحد يزيد فيها تفصيلاً على تفاصيل، ويقال أيضا إن عمتي ميمونة كانت لا تتردد في أن تخلي لهما المكان وتحرسهما كي يلتقيا في سرية ومأمن من عيون الرقباء، الذين قد يرسلهم نور لمعرفة تحركات زوجته.

لماذا كانت عمتي ميمونة تتصرف بتلك الطريقة الانتقامية تجاه نور؟ ولماذا كانت زهرة غير وفية لزوجها وظلت عاشقة لأخي مجيد؟ تقول عمتي إن زهرة لم تحب نور يومًا، بل إن عمي إدريس قد وافق على زواجها من نور شريطة أن يتزوج هو بدوره أختًا لنور اسمها اليامنة. كانت أرملة مجاهدة، وقد عُرفت بجمالها الخارق في النواحي، إلا أن جمالها جلب عليها كثيرًا من المآسي من كثرة عيون العشاق، حيث إنها وهي فتاة لم تتجاوز العشرين سقطت في حب رجل بعمر أبيها، كان ينفرد بها بين جذوع الصبار الذي

يحيط بيتهم العائلي الكبير، وحملت منه بطريقة غير شـــرعية، وهو ما جعل العشيق يختفي فجأة دون رجعة بمجرد أن علم أنها حامل. درءًا للفضيحة، حاولت أمها أن تجهض الحمــــل، لكنها انتبهت إلى ذلك وقد فات أوان إمكانيـــة إســـقاطه. وضعت اليامنة طفلاً يقال إنه كان من أجمل الأطفال، سمتـــه عبد الله، أطفال الحب جميلون دائمًا؛ لأنهم يولدون من علاقة حب وليست من علاقة نكاح في ظلام أو من فض بكـــارة على عجل. لم تستطع وتحت عيون الفضيحة أن تحتفظ بـــه فدبرت له موتًا بافتعال عملية النوم فوقه ليوجد في الصـــباح مخنوقًا، هكذا ومع مرور الزمن نسي الناس كثيرًا، لكنـــهم لم ينسوا حكاية اليامنة مع عشيقها ومع وليدها الذي اغتالته.

اختفت اليامنة لسنوات، يقال إنها سافرت إلى المغـــرب لتقيم عند بعض أقارب العائلة بالمصاهرة في الدار البيضـــاء، لتهاجر بعدها بأشهر إلى اسطنبول وتستقر هنـــاك متخـــذة لنفسها اسمًا أجنبيًّا هو "كوليت"، وبعد أن استقر بها المقـــام، وخبرت خبايا عالم الشوارع الخلفية والسفلية، قليلاً قلـــيلاً بدأت تتسلل إلى حياة بعض شخصيات الوازنة من أصحاب القرار السياسي والاقتصادي، اقتحمت سوق تجارة تربية نوع من العصافير التي تباع للسياح، يأخذ السائح العصفور لبعض اللحظات بين يديه، يتأمل منقاره ولون ريشه، يمسح عليـــه

ثلاث مرات، يقبل رأسه، يفكر في حلم يتمنى تحقيقه ثم يطلق رباط ساقيه، أحلام تدور ما بين حب النساء والمال ومـرات قليلة الصحة، يتحرر الطائر، يطير في السماء عاليًا، وهكـذا دواليك، خمس دولارات للطير الواحد، إلا أن عمدة المدينـة ونظرًا لتكاثر الطيور من فصيلة الشحرور والقبرة والتّرغّل في مدينة اسطنبول على حساب الفصائل الأخرى، قـرر منـع تربيتها وتفريخها، ويقال إن سبب هذا المنـع يعـود إلى أن العمدة الذي يُسمّى سليمان بيك كان قد شاهد ذات يوم في قاعة من قاعات العرض السينمائي فيلمًا بعنـوان "الطيـور" لهتشكوك، وبمجرد خروجه من صالة العرض نظر إلى سمـاء مدينة اسطنبول فوجدها سوداء مغطاة بأسراب الطيور الـتي تحوم فوقها من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، فتحجب الشمس عنها أو تكاد؛ فشعر بنوع مـن الرعـب، وتخيل نفسه وسكان مدينته مسرحًا لوقائع مشابهة لتلك التي صوّرها هتشكوك في فيلمه. وفي اليوم التالي جمع أعيان المدينة ومنتخبيها حول طاولة واحدة لجلسة طارئـة واسـتثنائية، وبالإجماع اتخذ قرارًا يمنع بموجبه تربية وتفـريخ الطيـور في المدينة وضواحيها، على قطر دائرة يمتـد لمائـة وعشـرين كيلومترا. وحظر عادة إطلاق الطيور مـن قبـل السـياح الأجانب، وهو ما جعل تجارة اليامنة أو كوليـت تنـتكس

انتكاسة كبيرة؛ فأصبحت مهددة في قوتها، وانهارت السياحة، وفقدت المدينة بعد ستة أشهر موسيقى الطيور الخاصة، التي كانت تجلب مئات الآلاف من الموسيقيين المحترفين والهواة ومن رواد الأوبرات في العالم، وهو ما دفع بكوليت إلى التفكير في الهجرة إلى باريس بحثًا عن مغامرة أخرى، لباريس غواياتها، هي مدينة المفترق والملقى بين طرق طيور الأحلام.

دخلت باريس ولم تجد سوى جسدها المنحوت بعناية وإثارة كي تعيش منه، وهي التي تقول دائمًا: "الجسد نعمة إلهية، علينا تربيته والعناية به كما العناية بالطير حتى تطلع موسيقاه أطول وقت ممكن من العمر."

اعتقد عمي إدريس أن أهالي القرى قد نسوا حكاية اليامنة، فطلب يدها وكان له الذي أراد بعد أن وافق بالمقابل على زواج زهرة من نور شقيق اليامنة، هكذا تمت الصفقة.

ليلة العرس، جيء بالعروس اليامنة على فرس بيضاء، في الليل حين لا يُميز القط الأبيض من الأسود، على الرغم من تقدمها في العمر، كانت قد تجاوزت الأربعين بسنوات، إلا أنها ما تزال تحافظ على جمال جسدي مدوِّخ وعلى ابتسامة ساحرة لا تغادر طرفي عينيها العسليتين المثيرتين لشبق متوحش دائم بما تحملانه من آثار لتعب السهر، في حركات ذراعيها المصبوبين من فتنة نعومةٌ سحرية تصعد من أصابعها

الطويلة المدهشة المنحوتة من شمع أصيل، وأظافرها الطويلة المصبوغة بلون أحمر قرمزي مدهش وجنسي، وجيء بعمي إدريس في كرسيه المتحرك يدفعه عيّاش وقد ارتدى طقمًا جديدًا، ولأول مرة يضع ربطة عنق بلون أصفر فاقع بدلاً عن الأحمر الكرزي أو الأحمر المخطط، لا أحد يعلم لماذا هذا اللون بالذات، ليس مهمًّا. كان عيّاش مبتسمًا ترتسم على وجهه النحيل ملامح الفرح والأمل. بالمناسبة لقد غير عمي إدريس كرسيه بأن اقتنى واحدًا جديدًا عجلاته أكثر سماكة وأسرع حركة على الأرضيات غير المعبدة، كرسي عثماني، كان يقول عنه وهو يضحك بكل طفولته الدائمة: "إنه كرسي السلطان سليمان القانوني، صاحب الخدم والحريم والغلمان والبوسفور والمال والمساجد السياحية الكثيرة المصنوحة من رخام اصيل..".

زغردت النساء وأدخل عمي على عروسه، تحت ضوء مصباح قوي، رآها، رآها ومعها استعاد عطر الماخور وصوت امرأة تقول له بفرنسية ذات لكنة أنثوية مغاربية: "رأسك مطلوب، عليك أن تختفي، لقد طلب مني مسئولو جبهة التجرير الوطني هنا بباريس أن أغتالك، أنت من جماعة مصالي الحاج".

22

نسيت جدي، نسيت أريج القهوة!

عامان مرًّا على موتِ جدي حمديس. بسرعةِ البرق تمـــر الأيام، السنوات تعبر مسرعة كالسحاب على الأحياء ربمـــا بسرعة تفوق سرعتها حساب ساعة الأموات. ساعات اليوم في حساب الميت الممدد في التراب ليست بعدّ الحي في صهد الحياة. نحن نعيش نكد الحياة وهامشها ولا نعـــيش الحيـــاة بوهجها وتفاحها. مر يوم ذكرى وفاة جدي و لم أتـــذكره، عيب، خيانة للقهوة، وهو الذي كان يصرُّ عليّ أن أشـــرب معيته يوميًّا فنجان قهوة العصر. كنت أجلس وقتها في بـــار صغير اسمه بار كامو الواقع في زاوية عمودية في شارع فرعي ينزل من شارع محمد خميستي (لالزاس لورين سابقًا) يوصل إلى شارع جبهة البحر بمدينة وهران، في ذلك اليـــوم، يـــوم الذكرى الثانية لوفاة جدي، وفي ذاك البار، شربت أول بيرة

لروح وقلم ألبير كامو الذي كنت مغرمًا بكتابه "أعراس". لم أفهم روايته "الغريب" جيدًا ولم تعجبني، مع ذلك وبمجرد أن أنهيت قنينة البيرة تذكرت، لست أدري كيف ولماذا، ذكرى وفاة جدي، ولأنني وعدت نفسي بزيارة قبره في الذكرى الثانية لوفاته، غادرت البار وركبت حافلة وجدتها متوقفة على الرصيف استعدادًا للانطلاق. لم يكن الطريق طويلاً ولم أشعر به، فقد غرقت في إعادة قراءة بعض الفصول من رواية "وداعًا يا غولساري" التي أعيد قراءتها كل ربيع، منذ الصغر أعشق الأحصنة والكلاب. حين وصلت القرية كان الليل قد حل، وجدت البلدية قد غرست أعمدة كهربائية بعضها من اسمنت وبعضها من خشب على طول الأزقة والطريق، وأدخلت الكهرباء إلى بيوت قرية قصر المورو، وقد سحب عمي إدريس خيطًا مباشرًا من العمود الكهربائي العمومي وأنار بقاليته التي وجدتُ فيها اليامنة تقوم مقام عمي. سلمت عليها وسألتها عن عمي فقالت لي بكثير من الألم: "لقد أدخل إلى مستشفى تلمسان، بعد أن انهارت حالته الصحية فجأة. إنه يرقد في نفس المستشفى الذي فيه تم بتر ساقيه، لكن حالته ليست بسيئة، من المفروض أنه سيخرج غدًا، حسب ما قاله طبيبه الكوبي السيد ألبيرتو غوسي مانادو". أثارني كلامها الدقيق وفرنسيتها العالية وأدهشني

جمالها، امرأة لم تفقد أنوثتها على الرغم من تقدم العمر والمحن والتشرد.

لا أفضل زيارة المقابر صباحًا، لذا فقد أجّلت ساعة الوقوف على قبر جدي حتى وقت الظهيرة. كانت الشمس خجولةً والرياح لا تتوقف عن اللعب بالتراب فتثير غبارًا في السماء. انطلقت في اتجاه المقبرة، مقبرة الدومة العائلية، حين وصلت وجدت نبات السدرة الشوكي المتوحش قد غطى جميع القبور، وأتلف معالمها وأعشاش طير كثيرة، وطنين خلايا نحل تسمع في صمت المكان وهدوئه. بحثت عن قبر جدي، طُفْتُ المقبرة مرتين، طولا وعرضا، مررت بين القبور وسرت فوق بعضها الذي طمسه الزمن والإهمال، لم أستطع العثور عليه. في النهاية وقفت على قبر مجهول على طرف المقبرة، يبدو أن ساكنه حديث الدفن نسبيًّا، ثم قرأت الفاتحة وتخيلت أن ساكنه هو جدي حمديس، القبور بالنيَّات وليست بالعظام التي فيها، كل الناس تقف خاشعة أمام قبر الجندي المجهول ولا أحد يعرف اسمه ولا من يكون. غادرت المقبرة في اتجاه موقف الحافلة بالقرية الرئيسة، أشعلت سيجارة واستعدت لذة أريج قهوة العصر التي لم تلبث أن اندثرت، لأشعر بمرارة قنينة البيرة الأولى التي شربتها في بار كامو بوهران.

قال لي أحد المارة من ساكنة القرية وقد عـــرف أنـــني غريب الديار وأنني أنتظر مرور الحافلة: "لا توجد حافلة تمـــر بالقرية في مثل هذا الوقت المتأخر من النهار". انتبـــهت وإذا الساعة قاربت الخامسة والنصف مساءً، لقد مرّ الوقت سريعًا دون أن أنتبه، قبل أن ينهي السيد عبارته توقفت سيارة أجرة صفراء اللون عند قدمي، فرمل السائق، تصاعد غبار كثيـــف حتى أغرقني، ركبت إلى جنبه: "إلى وهران؟" قالها بصـــوت غريب، هززت رأسي بالإيجاب، سارت بنا السيارة قليلاً، لم أتكلم، لم يكن هناك راكب آخر معنا، مال السائق بنظـــره نحوي قائلاً بنبرة إشفاق غريبة بعد أن خفّض مـــن صـــوت المذياع قليلاً والذي كان يذيع برنامجًا عن الحضارة الإسلامية في الجمهوريات الإسلامية السوفيتية، يقدمه أحـــد المـــثقفين الكبار اسمه الطاهر بن عيشة، ثم قال: "لماذا أنت حـــزين إلى هذه الدرجة؟ هل فقدت عزيزًا من أسرتك، أمك أو أباك؟".
لم أجبه، لكنني تساءلت بيني وبـــين نفســـي دون أن أنتبـــه لملاحظة السائق: "ربما يكون ذلك القبر الجديد نسبيًّا كمـــا يظهر من ترابه والذي قرأت عليه الفاتحة هو قبر أبـــي الذي قد يكون مات و لم أعلم بذلك."!

23

حدث في ذلك اليوم!

كان الجميع في قرية قصر المورو ينتظر حدثًا مثيرًا، لكنه تأخر طويلاً، فمنذ فترة والناس تلوك هذا السؤال في المقاهي والأسواق وفي الحمّامات: "متى يا ترى سيتقدم عيّاش لطلب يد ميمونة للزواج؟". كان أبـــي هو الآخر قد نفد صـــبره وهو ينتظر أن يسمع من عيّاش مثل هذه الجملـــة: "أطلـــب منكم سيدي يد أختكم للزواج على ســـنة الله ورســـوله"، فيزوجهما ليطفئ نيران الحكايات التي بدأت تطلع من كـــل بيت، حكايات عن خلواتهما وخرجاتهما. كان أبـــي ينتظر أن يفتح هذا الغبـــي فمه، وأخيرًا جاء اليوم وفتح الغبـــــي فاه بعسرٍ عسير، وكأنما فعل ذلك فقط استجابة لضغط عـــام شعر به في عيون من حوله من الرجال والنساء على السواء، على عجل، تمت الخطوبة في جلسة عائلية بسيطة وضـــيقة،

وحين لم ترسل أية واحدة من النساء الحاضرات زغرودة ولو شحيحة، صبت عمتي على جميع البنات سيلاً من السباب العاري، كلام ثقيل ووقح! ثم زغردت بنفسها على نفسها، أطلقت سيلاً من الزغاريد الطويلة حتى احمرّ وجهها وكادت حبال صوتها تتقطع، وقامت ترقص كالمجنونة رافعة عباءتها عن ساقها ورنين خلخالها يصل حتى الساحة العمومية، فما كان من النساء والفتيات الجالسات من حولها سوى أن دخلن الحلبة وعمَّت الزغاريد البيت، وانسحب أبي إلى الخارج، ودخل عمي وبدأ الرقص مع النساء من عمق كرسيه المتحرك، ضاحكًا ومعلقًا على رقص بعضهن.

منذ أن دخلت اليامنة بيت عمي إدريس زوجة، وما صاحب ذلك من صمت وتشنج ما بينه وبين أبي الذي اعترض على هذا القران، عادت عمتي ميمونة لتعيش معنا في غرفة خُصصت لها. لكن الأمور ما فتئت أن عادت إلى طبيعتها بين الأخوين.

كان عيّاش ينتظر بقلق وحيرة بادية يوم العرس الذي لم يتأخر كثيرًا. الجميع كان يريد استعجال إقامة الحفل. كان يقف في مقهى استراحة الاستقلال التي يديرها وهو في حالة من الشرود الذهني، قلق غريب مرسوم ليل نهار على وجهه، حتى إن بعضهم قال إنه شاهده وقد عاد لارتداء عباءته

النسائية خفية ليلا. لقد فضل أن يتخذ له سريرًا في ركن بالمقهى وكان يفضل أن ينام في عباءته النسائية! حين انتشر الخبر، أثار حرجًا وتساؤلاً كبيرين لدى عمتي، وهو الأمر الذي جعلها تبكي بكاءً مرًّا لأول مرة في حياتها، كانت تشهق وتشهق كطفلة ضاعت منها يد أم حنون في الزحام.

بعد ثلاثة أيام من قراءة الفاتحة، جاء يوم العرس ودُعي إلى الحفل أفراد العائلة الكبيرة من سكان قرية قصر المورو، وكذا بعض الجيران من القرى والمداشر القريبة، مع ذلك لم يبدِ عيّاش أي سعادة للحدث، كان يتلقى تهاني الناس في المقهى ببرودة، كما تُتَلقى التعازي.

مساءً، واقفًا عند عتبة البيت الكبير، تتدلى فوق رأسي، نازلة من خيط كهربائي مشدود إلى طرفي الحوش، مجموعة من المصابيح التي أنارت الحوش كاملاً، من هنا، أراقب حركات عمتي ميمونة وهي تُنْقَل بخطى صغيرة لتزف إلى عيّاش، من غرفتها إلى غرفة أخرى مقابلة في البيت نفسه. كانت رنة خلخالها ثقيلةَ الإيقاع وحركات ساقها التي طالما ارتجفت وتعرت تكاد تكون صماء، باردة، جامدة، أو هكذا تبادر إلى ذهني وهي تمر أمامي دون أن تنتبه لوجودي والزغاريد المبحوحة تتبعها، وأمي غنوجة بفرح عامر ترش عليها قطع السكر وحفنات حبوب الملح الخشنة وكمشات

من القمح وسيل من دعوات البركـة والصـحة. سـارت العشرين خطوة أو أقل التي تفصل بين الغرفتين المتقـابلتين، مسربلة في لباس تقليدي أبيض، ملفوفة في حائك من حريـر أبيض مائل إلى الاصفرار قليلاً يُسمّى "حائك العشعاشـي". كان عطرها قويًا، لكني بسرعة استدركت بأنه ليس عطرها بل هو للمرأة التي كانت تساعدها على المشي، عمتي تحسـن اختيار عطرها. فجأة شعرت برغبة عارمة في مغادرة الحفل، الذهاب بعيدًا في الخلاء، أحسست بضيق في التنفس، شـيء كالاختناق، لقد خطفوا مني عمتي ميمونة؟ أنا عاشق عمته! خمسة وخموس عليها! حين هممت بالانسحاب من الحفـل، فاجأني صوت عمي إدريس الذي طلع من كرسيه المتحـرك الغارق في الظلمة في الجهة الأخرى من المراح، بعيدًا عن حبل المصابيح، قائلاً: "أين السي مجيد؟"، شممت رائحة غريبـة في تبغه، تبغ غير عادي! كان يعضُّ على غليون مصنوع من لوح شجر الجوز الهندي، وكعادته يضحك بهستيريا طفولية، ويهز كتفيه راقصًا دون موسيقى. كانت الموسيقى في رأسه! ولأول مرة، في سواد الليل هذا، أميِّز أسنانه التي اسودت وخربـت بالكامل، أو تكاد وقد سقطت له سن أمامية ونـاب علـى اليمين وآخر على اليسار من الفك العلوي، مع ذلك شعرت براحة وأنا أجده هنا في الوقت الذي هممت فيه بالانسحاب،

اقتربت منه، وضعت يدي على طرف كرسيه المتحرك كأنما عثرت على مُنقِذ لي من هذا الموقف البارد. رفع نظـــره إليَّ، وقد أدرك أنني لست مرتاحًا لهذا الحفل وأنني أفضل مغـــادرة المكان، وقال لي: "هل تريد سيجارة، تخفف بها عن حالـــك المرتبك جدًّا يا ابن أخي، يا عاشق عمته؟". لم أكن أرغـــب في أي شيء، لم أدخن يومًا أمام عمي إدريس، فما بالك أن يقترح عليّ هو نفسه سيجارة تبغها من نوع خاص؟! حشـــا لي غليونه بالتبغ الخاص، دون أن ينتظر موافقتي، ثم أخـــرج ولاعة وبحكة واحدة على جنبها أرسلت لسانًا من لهـــب في اتجاه الغليون، صعدت رائحة الغاز، سحب بعمق نفســـين أو ثلاثة ثم أعطاني الغليون، سحبت نفسًا ثم ثانيًا ثم آخر، بـــدأ مزاجي يتغير! وأحسست برغبة في الرقص، النسوة يرقصـــن والبنات كذلك، تحت أضواء خيط المصابيح الذي علـــق في مسمارين متقابلين وسط الحوش. لمحت شبح زهرة، كانـــت في أناقة لم أرها عليها منذ كانت فتاة قبل أن تغادر بيت عمي إدريس زوجة لنور، بدت في كثير من الرقة والأنوثة والجمال وقد أصبحت امرأة كاملة، جالسة على كرسي تضع ســـاقًا فوق ساق. في الحين تذكرت أخي مجيد، وســـكنني شـــوق لرؤيته وهو الذي ذهب لأداء الخدمة الوطنية، وقد تم تعيينه في ثكنة بمدينة أفلو بوابة الصحراء، لم أره منذ ستة أشهر تقريبًا،

كان يجب أن يكون هنا كي يرى بأم عينيه كم هي جميلة زهرة تحت ضوء المصباح في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل، وفي مثل هذا اللباس التقليدي المثير والفائض أنوثة. فجأة صعد صوت اليامنة زوجة عمي إدريس في أغنية مثيرة وجميلة، أغنية تغنى عادة في المواخير، أعجبني صوتها، وأعجبتني اللوعة التي في لبّه وكأنما تذكرت للتو عشيقها الأول ذاك الذي فض بكارتها في تلك القيلولة بين أشجار الصبار، وأسكن طفلاً جميلاً في رحمها واختفى كالنذل، رحل الخائن كروث البقر يحمله سيل مجرى نهر نحو المجهول.

الرجال لا يفقهون الحب كما تفقهه النساء، الرجال ضالعون في الدين والنساء ضالعات في الحياة. الرجال ضالعون في حب لله بنفاق والنساء وفيات لحب الرجال المنافقين الأنذال. كنت أفكر في هذه المعادلة وأنا أسمع اليامنة زوجة عمي إدريس تغني، وللتو أحببتها أكثر. وكان عمي بجواري وهو يسمعها يستعيد ذكريات أيامٍ أخرى وليالٍ أخرى خلف البحر، في مدن الشمال.

الغليون انطفأ، نفد تبغه، وبدأت أشعر بجسدي وقد أضحى خفيف الوزن، وبروحي شفافة تحوم فوق رأس اليامنة وهي تغني والنساء يزغردن، وعمي إدريس يطلق بين الفينة والأخرى صرخة عالية من عمق كرسيه المتحرك. أنتبه الآن

أنه غيَّر الكرسي للمرة الثالثة، هذا أكثر راحة وأوسع ولـــه متكئان ووسادة من حرير عند الرأس. انتبه عمي إدريس أنني أتفحص كرسيه الجديد فقال: "يمكنني أن أســـتعمله ســـريرًا للنوم حين تطردني اليامنة من سريرها!". قالها وأرسل ضحكة في شكل قهقهة، ثم، مثل طفل يريد أن يكشف لي عن ســـر لعبته، كبس على زر فانسحبت العجلتان الأماميتـــان علـــى قضيبين طويلين، ومال متكئ الظهر إلى الخلف على ســـبيكة وتحول الكرسي إلى ما يشبه السرير فعلاً. ثم كبس ثانية على الزر فعادت العجلتان إلى مكانهمـــا والكرســـي إلى وضـــعه العادي.

ضحكنا معًا بصوت عالٍ، عمي إدريس وأنا.

كان عيّاش متحلزنًا في برنوسه، معتصمًا بركن، صامتًا، ينظر إلى بعض الرجال الذين من حولـــه، يشـــرب الشـــاي ويدخن بشراهة. بدا نظره فارغًا، لا يحمـــل أيـــة دلالـــة أو إشارة، أشرتُ له من بعيد محيِّيًا، رد عليّ بإشـــارة كســـولة وابتسامة مطفأة، تحت ضوء المصباح الخافت بـــدا مـــتحيرًا، كأنما يبحث عن طريق ليخلو بنفسه أو هو يـــتحين لحظـــة صعود شلال قيء ينتظر طلوعه من معدته بين الحين والآخر.

بدأ الحاضرون من الضيوف يستعدون للمغـــادرة، ودّع بعض الشيوخ ولحقتْ بهم بعض النساء يجررن أطفالاً نصف

نيام. تسلل عيّاش من مجلسه، سحبني في طريقه من ذراعي واختفينا في الظلام دافعين أمامنا عمي إدريس على كرسيه، والذي لا يتوقف عن الضحك والتعاليق الساخرة الموجهة لعيّاش الذي بدا باردًا لا يرد ولا يعقب. ابتعدنا عن مدخل البيت حتى وصلنا السور الخارجي للحوش وما عاد ممكنًا المغامرة بدفع الكرسي المتحرك في العتمة والتراب والحجر والنباتات الوحشية أكثر من ذلك. أخرج عمي إدريس كيس التبغ الخاص، ناوله لعيّاش الذي برم سيجارة، سحب منها نفسًا عميقًا ثم تتالت الأنفاس على وتيرة أقل، شيئًا فشيئًا تعدل مزاجه قليلاً، برق ضوء في عينيه الصغيرتين يرسل شرارًا، أصوات النساء المحتفلات ما عادت تجيء بقوة، إنها تخمد قليلاً قليلاً، ومعها تتلاشى أصوات الأطفال، في الحوش تطفأ الأضواء الواحدة بعد الأخرى، وعيّاش يمسك بسيجارته الثانية ثم يتكلم بحرقة قائلاً بحشرجة في صوته: "عليّ أن أرحل الآن".

في لمح البصر، نزع عنه طقمه وفك ربطة عنقه ورمى بها على الأرض، ارتدى عباءته النسائية واختفى في الظلام حتى دون أن يودعنا.

"ترحل؟" قلتُ.

"وعمي؟" قلتُ.

كنت أسمع صوت خطواته وهي تبتعد، يبلعها الليل، لحظات و لم نعد نسمع شيئًا، كان الفجر قريبًا من البزوغ.

فجأة نسي عمي إدريس ضحكه وبدا باردًا، ثلجًا، محملقًا في السماء تارة وفيّ تارة أخرى. قلت له وأنا أهزه بعنف من كتفيه وهو في عمق كرسيه المتحرك جمادًا: "أين ذهب؟ هذه ليلة عرسه، هذه ليلة عمتي ميمونة!".

بصوت قادم من الأعماق أجابني عمي إدريس: "يا ابن أخي، لهذا الهروب أو الانسحاب حكايته، سأقصها عليك غدًا، وحده جدك الذي يرقد تحت التراب من كان على علم بالحكاية وتفاصيلها."

سكت لحظة ثم أضاف: "ادفع بي الكرسي إلى البيت، أريد أن أنام".

وأنا أدفع به الكرسي، مشينا كما نمشي في الجنازة، تذكرت أنني خنت جدي و لم أقف على قبره وهو الذي قاسمني لسنوات قهوته المتميزة.

اختفى العريس، اختفى عيّاش في ليلة عرسه.

خمسة وخموس عليها عمتي الغزالة!

24

خمسة وخموس عليها، ثانية!

في اليوم التالي، صباحًا وقبل أن أغادر قرية قصر المورو، متوجهًا إلى وهران، حيث سجلت بقسم اللغات الأجنبية وألغيت تسجيلي في كلية الفنون الجميلة قسم المنمنمات. أردت أن أودع عمتي ميمونة، أن أقبل رأسها وأعانقها وأشم رائحتها وأسمع بعضًا من شتائمها الرقيقة، لكني لم أتجرأ على الدخول عليها وهي ممددة على فراشها وقد سحبت خلخالها الفضي من قدمها، وقاطعت الجميع، صامَتْ عن الكلام، لكنني وفي الوقت نفسه لم أستطع مغادرة البيت دون أن أراها، ولأول مرة وقفت على عمة مستسلمة للقدر. إنها ليست عمتي ميمونة العجيبة! خطفت حقيبتي الفارغة إلا من بعض الكتب والأوراق من يد أختي سارة التي زاد عمرها من البارحة إلى اليوم عشر سنوات وأكثر، قبلتها، غابت أمي عن

المشهد، كان الجميع كما في مأتم لشخص لا هو حي ولا هو ميت. أسرعت الخطو خارج البيت، كنت أريد أن أطير بعيدًا، مررت بـ "بقالية الاستقلال"، وجدت عمي إدريس جالسًا خلف الكونتوار غارقًا في كرسيه يغالب النوم، وربما يقاوم صداعًا برأسه من جراء مفعول تبغ البارحة! بدا لي كرسيه ليس ككرسي البارحة الذي يشبه السرير، بالقرب منا، مقهى "استراحة الاستقلال" الذي يديره عادة عيّاش مغلق، مجموعة من الكراسي والطاولات عند الباب بعضها فوق بعض، عليها غبار وبقايا بقع قهوة وشاي البارحة، يحوم عليها ذباب عنيد. قلت لعمي إدريس: "عليّ أن أسافر، المكان الذي لا تضحك فيه عمتي ولا يسمع فيه رنين خلخالها عليك أن تهجره إلى الأبد". سقاني كأس شاي ساخن وطلب مني أن أجلس بعض الوقت قبل أن أرحل، فالنهار لا يزال في أوله، ثم خاطبني: "هل تعلم لماذا هرب عيّاش؟ لماذا غادر القرية و لم يستطع الدخول على ميمونة ليلة عرسهما؟". قلت في نفسي: "ربما يكون مثليًّا وهو الذي حل بالدشرة بلباس نسائي وغادرها أيضًا بعباءة نسائية!".

سقاني عمي إدريس كأس الشاي الثانية، شعرت بها ثقيلة، ثم تنحنح وقال:

"سأصارحك يا ابن أخي، أنت مثل ابني وأكثر، سأقصُّ عليك حكاية عيّاش كما رواها لي والدي، أي جدك حمديس الذي شربتَ معه عشرات فناجين القهوة. روى لي ما سأقصه عليك ليلة موته، ساعات قبل موته حيث استعاد صوته بشكل فجائي للحظات، وهو الذي لم يكن قد تكلم قبل فترة، قرأ فيها الفاتحة والشهادة بعد أن روى لي الحكاية التالية، سأقصها عليك من الألف إلى الياء، هو الوحيد الذي كان مطلعًا على سر يحمله عيّاش في قلبه منذ سنوات الثورة النارية، ذاك هو السر الذي لم يستطع بسببه أن يدخل على عمتك ميمونة، وأن ينام معها على سرير واحد وأن يفصح به لها، أو أن يعيش معها كزوج، سر كالرمانة المقفلة على حبوها من جميع الجهات، النفوس غرائب، لو أن جدك ما يزال حيًّا ما كان ليوافق على هذا الزواج؛ لأنه يدرك جيدًا أن عيّاش لن يستطيع معاشرة ميمونة لما له عنها في الذاكرة.

قال جدك حمديس رحمه الله:

"لقد كان سيدي الشيخ عبد الحميد حافظ القرآن زوج فاطمة الزهراء أو ميمونة، متعبدًا، متهجعًا، متخشعًا، يتلو كلام الله ليلاً ونهارًا، في أيام الصيام كما في الإفطار. هو من يؤم صلاة الجمعة وهو من يقوم بترتيب أمور الجنازات وشؤون الحياة اليومية في قريته وفي القرى المجاورة. له سلطة

وسلطان على اليد وعلى اللسان، ومن يملك كلام الله في قلبه يملك السلطة المطلقة على عباد الله. هو من كان يشرف على شؤون الزواج وهو من ينظم الجنائز والولائم، وهو من يصلح ذات البين بين الأهالي الذين لا تتوقف الخلافات بينهم بسبب معزة أكلت غصنًا من شجرة أو بغلة داست قطعة أرض مغروسة بطاطا أو كلب افترس دجاجة جارة أو.. مشاكل الحياة اليومية يا بني لا تنتهي، ورث ذلك عن أبيه الذي كان مثالاً في الاستقامة والعبادة.

كان سيدي الشيخ ملاكًا في عيون الأهالي، يملك في لسانه وفي جيبه مفاتيح الجنة جميعها، قلبه وعينه على الجميع، الكبير والصغير، المرأة والرجل، الجماد والمتحرك من خلق الله، هكذا كانت تتجلى صورة سيدي الشيخ لدى الصغير والكبير على السواء.

لكن الثورة التي انطلقت بكل عنفوانها وعنفها وشراستها التاريخية الإنسانية، كانت في طرحها لأسئلة الوجود والكرامة والعدل والحرية تختلف عن مقاربات سيدي الشيخ وتتجاوزها.

جرفه النهر الذي خرج عن سريره وثار ضد مجراه.

كانت الثورة أعمق من فهمه الساذج والبسيط للحياة في بلد مستعمَر.

لم يفهم جيدًا ما يجري حوله، اختلطت عليه الأمــور، وتشابكت كرة الخيط بين يديه، ضاع منه رأس الخيط، وحين شعرت الإدارة الاستعمارية بأن الأمور من حولــه بــدأت تتجاوزه وتفلت منه، ولم تعد له سلطة الأمر والنهي علــى الناس من الفلاحين والعَمَلة، فالسلطة الحقيقيــة انتقلــت إلى الثوار والسياسيين في الجبال أو إلى أولئك الذين يعيشــون في السرية المطلقة، لم تتأخر الإدارة الفرنسية أن قربتــه منــها، وحاولت تعظيمه في عيون الأهالي كي تعيد لــه الاعتبــار، وبالتالي يقوم بمهمة إطفاء النار التي اشتعلت في الضواحي، نار لا تبقي ولا تذر.. نار الثورة.

في حالة من الإحساس بالضعف والعزلة والبحث عــن تموقع جديد، أصبح خطاب سيدي الشيخ يتضمن الــدعوة الواضحة للتخلي عن العنف والحرب، وما شابهها من مقاومة راديكالية ضد الاستعمار، وأصبح يدعو الأهالي في خطبــه ودروسه ومواعظه إلى ضرورة احترام ذوي الأمر والسلطان، أي الفرنسيين، وأن طاعة ذوي الأمر واجبٌ ديني يجب القيام به وإلا كان مآل المسلم يوم القيامة جهنم وبِــئس المصــير. كانت خطب الجمعة ورفع الدعاء بعد كل صلاة جنــازة أو ولادة أو ختان هو "التأكيد على الدعوة إلى طاعــة الإدارة الفرنسية، التي ترعى البلد وتحترم الإسلام الحنيف، وتســهر

على حياة المسلمين وأملاكهم مما قد يُجرون إليه من مـوت وفساد، تقودهم إلى ذلك شرذمة من المغامرين الذين لا يحبون السلام والأمان". كما أنه بدأ يدعو إلى تشكيل فريق من أبناء النواحي الذين لم يلتحقوا بالثورة، واستعمالهم كدرع ضـد أي هجوم قد يستهدف مؤسسات الإدارة الفرنسية. وكـان يغدق على هؤلاء الشباب والشيوخ ممن دخلوا صفوفه أموالاً ويمنح ذويهم امتيازات تقدمها الإدارة الاستعمارية.

كانت عين الثورة غير نائمة، والثورة لا تنام، وبـدأت التقارير تصل القادة في الناحية، لتُرفع إلى الجهات العليـا في الثورة. وقد كلفت الثورة أحد المنتمين إليها تنبيـه سـيدي الشيخ ثلاث مرات، مطالبة إياه بالنأي بالدين عـن الإدارة الاستعمارية، النأي بالدين عن السياسـة، والتوقـف عـن الخطابات ذات الصبغة الدينية المنحازة للاستعمار، والتي تؤثر على الأهالي من الفلاحين البسطاء ذوي الثقافـة والـوعي المحدودين، والذين هم الوقود الأساسي للثورة، لكن سـيدي الشيخ كان غارقًا في المتـع الـتي أغرقتـه فيهـا الإدارة الاستعمارية، ولم يولِ أي انتباه لرسائل الثوار. وحين شعرت القوات الفرنسية بأن حياة حليفها أصبحت مهددة من قبـل الثوار، عينت له حارسًا مسلحًا ممن تثق بهم يرافقه في كـل مكان، يصاحبه في الأسواق وفي المسجد، لا يفارقـه حـتى

يدخل سريره ليجد فاطمة الزهراء تنتظره رافعة فخـــذيها إلى السقف تحرك خلخالها، فتبعث فيه موسيقى شبقية مثيرة.

وحين لم يأبه لرسائل الثورة وتحذيراتها التي كانت تصله يوميًّا بشكل مباشر أو غير مباشر، ولم يراجع مواقفه، بل إنه تمادى في الطاعة للإدارة الاستعمارية؛ قررت القيادة الانتقال إلى مرحلة الإعداد لخطة التصفية الجسدية، وشُرع في تـــدبير عملية القضاء عليه والتخلص من وجوده الذي بدأ يعكر تقدم الثورة، التي حققت نجاحات في الميدان العسكري والسياسي والدبلوماسي الدولي، فكان أن تم اختيار المناضـــل عويشـــة الموجود بمخيمات اللاجئين على الحدود لتنفيذ مخطط القضاء على سيدي الشيخ. هكذا وبسرية تامة غادر عويشة المخـــيم ذات ليلة بعد أن رتب المسبلون له الطريق بدقة مكَّنته مـــن التسلل عبر خطوط العدو على الحدود، ونزل بقرية ســـيدي الشيخ ذات صباح باكرًا قبل صلاة الفجر، مرتـــديًا عباءتـــه النسائية كالعادة، وقف عند باب المسجد، سلم على سيدي الشيخ مقبلاً ظاهر كفه سبع مرات، ثم على رأســـه ثـــلاث مرات. استغرب سيدي الشيخ وجود هذا الســـيد بعبـــاءة نسائية، سبقه، سحب له البلغة من قدميه وفرش لـــه زربيـــة كانت معلقة على طرف المنبر الصغير لقراءة بعض آيات من الكتاب الكريم قبل الصلاة. انسحب عويشة دون أن يـــتكلم

ليقرفص أمام عتبة المسجد الصغير الموجود على أطراف القرية.

في اليوم التالي لوصول عويشة إلى قرية سيدي الشيخ نزلت دورية مكونة من خمسة من رجال الدرك الاستعماري يركبون ظهور الخيل، ربطوا عويشة من يديه بحبل خلف أقوى حصان في المجموعة، وسحبوه خلفهم إلى المركز المتواجد على بعد عشرة كيلومتر تقريبًا. رُمِي به في زنزانة انفرادية بدون أكل ولا شراب، ولم يخرجوه منها إلا بعد أربعة وعشرين ساعة مغمى عليه، رشوه بماء، استفاق ثم أعادوه إلى الغرفة ليقضي فيها الليل والنهار دون أكل ولا شراب. لم يكلمه أحد، وفي اليوم الثالث جيء به مكبلاً أدخلوه المكتب، أوقفوه أمام رئيس مركز الدرك الوطني الفرنسي بحضور أحد المترجمين من المتعاونين مع سيدي الشيخ، وبدؤوا بالتحقيق معه دون استعمال العنف؛ فكان يرد بشكل بهلواني على جميع أسئلتهم، أجوبة متناسبة مع شكله ولحيته ولباسه النسائي. وحين لم يعترف، أمر قائد المركز أحد الحركى من المتعاونين مع الإدارة باغتصابه جنسيًّا، قائلاً له بالفرنسية: "بما أنك عويشة، فسننكحك يا عويشة Parce que tu es une Aouicha, on va baiser cette Aouicha»"، جرد من لباسه النسائي، واعتدي عليه جنسيًّا

وبشكل جماعي من قبل عدد من الحركى المتعاونين ومن عناصر الدرك راكبي الخيل، مع ذلك صبر وصابر ولم يتنازل ولم يعترف، وفي اليوم التالي تم إطلاق سراحه بعد أن تأكد لهم أن الرجل مختل عقليًّا، ومع ذلك ظل تحت رقابة عيون الدرك وعملائهم من الأهالي. بعد نصف نهار مشيًا على الأقدام، عاد عويشة ليقف بباب المسجد بلباسه النسائي دائمًا، وكما في اليوم الأول وبمجرد وصول سيدي الشيخ إلى باب المسجد أسرع عويشة لمقابلته، وقبّل ظاهر كفه سبع مرات وثلاثًا على رأسه، ثم سحب من قدمي سيدي الشيخ البلغة الصفراء النظيفة، وضعها عند طرف حصير المُصَلّى، ثم بسط أمامه سجادة من حرير، وعاد ليقرفص أمام عتبة المسجد. مع مرور الأيام أصبح عويشة يتولى مهمة تحضير ماء الوضوء لبعض المصلين ويقوم بتنظيف المصلى، ومرات بنفض الغبار عن حصير المسجد وبسطه أمام الشمس لطرد الرطوبة عنه، ويكنس قدام الباب. كان عويشة لا يصلي ولا أحد يطالبه بذلك فهو في رأيهم رجل مختل عقليًّا، ولاحقًا، أصبح هو الآخر يتبع ركب سيدي الشيخ إلى الولائم وفي الأسواق، يتقدم الركب ليخلي له الطريق صارخًا في العامة من المتسوقين أن يفسحوا الممر لسيدي الشيخ، وكان يحمل له بعض الهدايا التي تمنح له من التجار والباعة المتجولين من لحم

وفواكه وخضر وأثواب وأشياء أخرى، يحملها على ظهــره، يوصلها حتى باب بيته، يتركها هناك أمام العتبة، ثم يعود إلى باب المسجد ليجلس في مكانه الذي لم يحد عنــه. كــان لا يدخل المسجد إلا نادرًا، في تلك اللحظات التي يرافق فيهــا سيدي الشيخ كي يخلع له بلغته أو ليبســط لــه الســجاد الحريري، أو لكي يرفع الحصير لنفضه، غير ذلك كان ممنوعًا من الدخول إلى هذا الفضاء، وكان ممنوعًا عليه أيضًا لمــس نسخ المصحف الشريف والكتب التي على الرف من صحيح البخاري وصحيح مسلم وبعض الخطب التي حصل عليهــا سيدي الشيخ خلال زيارته إلى البقاع المقدسة.

كان بعض عسكر الاستعمار وأفراد الــدرك الــراكبين ظهور الخيل ينزلون لــيلاً بالمنطقــة، دون ســابق إنــذار، لاستطلاع الوضع في القرى والمداشر، فيتخذون من غرفــة صغيرة بمحاذاة المسجد، غرفــة عــابري الســبيل، فضــاء لسهراتهم، يحضرون معهم مشروبات كحولية وغازية وعلب اللحم المصبر، لحم خروف وبقر وخنزير وعلــب الســردين والأجبان والفواكه وغيرها، وكانوا يطلبون سيدي الشــيخ للجلوس معهم لإعطائهم بعض الأخبار عن الأهالي. كــان عويشة هو من يرتب لهم المائدة ويشرف على توزيع كؤوس الشراب. كان سيدي الشيخ يمتنع عن الشراب، ويسأل عــن

اللحم إذا كان خنزيرًا لا يأكل منه، فهو في الإسلام حـــرام، بل إنه كان يتحرج حتى من تناول المشروبات الغازية معتقدًا أن بها كحولاً. أما عويشة فكان لا يتردد في الشـــرب ممـــا يشربونه ويأكل مما يأكلون من لحم بقر أو خنزير لا فـــرق. كان يبدي فرحًا ظاهريًّا كبيرًا بحضورهم حتى استأنسوا لـــه ووثقوا به، فكانوا في كل سهرة يطلبون من سيدي الشيخ أن يعرض عليهم أحوال الناس، يطلبون منه معلومات عن غريب قد يكون دخل المنطقة أو مرّ بها، أسماء بعض الشباب الـــذين يرغبون في الالتحاق بالجبال بين الحين والآخر، وعن النســـاء اللواتي يخبزن أكثر مما تحتاجه أسرهن؛ مما يدل علـــى أنهـــن يوصلن ذلك الخبز إلى جهات مجهولة. كان يحدثهم أيضًا عن رد فعل بعض المصلين على خطبه حين يطلب منهم "طاعـــة ولي الأمر، ولو كان كافرًا، أي من غير دين الإسلام، كمـــا ورد عن الأسلاف".

بعد أزيد من ثلاثة أشهر وكثير من جلسات الأنس مع رجال الدرك والعسكر، وبعد أن اطمئن الجميع إليه، وبـــأمر من الجبهة، قرر عويشة الشروع في التخطيط للعملية ومعهـــا تأمين طريق الهروب أيضًا، العودة إلى مخيم اللاجئين في الجهة الأخرى من الحدود. في تلك الليلة حيث شـــربوا وســـهروا حتى ساعة متأخرة من الليل، وبمجرد أن قام سيدي الشـــيخ

بعد أن توضأ برفع آذان الفجر، انسحب رجال الدرك متعبين على ظهور خيولهم يغالبهم النعاس. ومع انتهاء الصلاة التي لم يحضرها إلا قلة قليلة لم تتجاوز ستة شيوخ، جلس سيدي الشيخ على زربيته كعادته يقرأ بعض آيات القرآن الكريم، فكانت الساعة المناسبة. هجم عليه عويشة بخنجره الذي كان قد جهزه بعناية منذ أسابيع، ذَبَحَهُ، وذبح معه حارسه الفرنسي الذي كان مخمورًا، ثم انطلق باتجاه الحدود، وقبل أن يطلع أول شعاع شمس الصباح كان على أبواب مخيم اللاجئين في الجهة الأخرى للحدود. استقبله الجد حمديس، لم يكلمه، لكنه فهم أن عويشة أدى المهمة كما يجب، وفي مساء اليوم التالي جاء قائد في جيش التحرير بعد أن وصلتهم أنباء عن ردود فعل الدرك الفرنسي من أعمال تنكيل بالأهالي في قرية سيدي الشيخ، بعد العثور على هذا الأخير مذبوحًا معية مرافقه وحارسه الشخصي، هنأ السؤول عويشة، شكره على أداء الواجب واختفى".

هل فهمت يا بوطشل، أيها البزّاق، لماذا لم يستطع عيّاش الزواج بميمونة؟

25

غاب الغزال، يعود الغزال؟

اختفى عيّاش ليلة العرس، غاب نهائيًّا، استغرب الجميع اختفاءه، وهو الذي لم يكن يخفي حبه وتعلقه بعمتي ميمونة، وعلى إثر هروب الغزال أصيبت عمتي بمرض غريب لم يُصِب أحدًا من الأسرة ولا من أبناء وبنات الأنحاء: فقد أصيبت بمرض فقدان الألوان، فعادت ترى كل الألوان من حولها صفراء. وبعد أسبوعين من اختفاء الغزال قررت أن تتخلص وبشكل نهائي من خلخالها. كان الجميع من أبناء قرية قصر المورو حزانى لهذا التصرف، وهي المرأة التي عرفت طوال حياتها، في أيام عسرها ويسرها، فرحها وقرحها، برنين خلخالها الفضي. وقد استغرب أهل القرى المجاورة من تصرف مثير لعمتي ميمونة، إذ كانت تنزل إلى نهر المالحة الذي يجري عند أسفل القرية، تتجرد من ثيابها كاملة، تدخل

ماء البركة، حيث يقوم الشباب بإقامة حاجز مائي على مجرى النهر كي يتجمع الماء في مكان يختارونه، يتخذون منه بركة للسباحة لتخفف عنهم القيظ الشديد. حين تدخل عمتي ماء الحاجز يهرب الجميع، كانوا يخافون من أن تقبض عليهم فتغرقهم حتى الموت أو تأكل قضبانهم كما كانت تقول مهددة: "من أمسك به أتغذى أو أتعشى بقضيبه!". وتضحك عاليًا وترمي بجثتها في الماء، ينسحب الجميع لتظل وحدها والشبان من بعيد ينظرون إليها، يتضاحكون، وينتظرونها متى تغادر، لا أحد يتجرأ على دخول ماء البركة وهي فيه. وكانت حين تميل الشمس نحو الغرب، وتقترب ساعة قهوة العصر، ترتدي ألبستها، تمر على المقبرة غير البعيدة من البركة، تحيِّي الأموات وتتوقف عند قبر أبيها أي جدي حمديس، وتخاطبه قائلة: "ما كان عليك أن تخرج السر، كان عليك أن تأكل لسانك في اليوم الأخير"، ثم ترجع إلى البيت.

مع بداية فصل الخريف بدأت البرودة تنزل، ومطر خفيف يهطل، ومع ذلك انتهت ساعات السباحة في الحاجز المائي. ذات صباح، لبست عمتي ميمونة خلخالها، قررت أن تتولى إعادة فتح المقهى "استراحة الاستقلال" التي كان يديرها عيّاش والذي ظل مغلقًا منذ اختفى. بعزيمة نادرة نظفت المحل، ساعدتها في ذلك اليامنة التي بدت متأثرة بما حصل،

وهي التي غنَّت كما يجب واحتفلت بذاك العرس من قلبـــها. بصمت أعادت عمتي ترتيب الطاولات والكراسي، وعوضت ما أتلف جراء الغلق والإهمال، ونصبتْ خيمة بدوية كـــبيرة أمام باب الاستراحة، ورفعت علم البلاد المستقلة عاليًا. ويومًا بعد آخر، أسبوعًا بعد آخر، استعاد المقهى حركتـــه، شـــيئًا فشيئًا بدأت سيارات النقل الخصوصية والحافلات والشاحنات المقطورة التي تنقل البضائع تتوقف، وأخذت الحياة تعـــود إلى المكان، الضجيج والنكت ورائحة الشواء والتبغ والصـــراخ، واقتنت عمتي ميمونة جهاز فونوغراف كبير بمكبري صـــوت علقتهما على باب المحل، ومعه حزمة من الأسطوانات مـــن عيار 33 دورة، وكانت لا تتوقف عن إذاعة الأغاني من كل ذوق، خاصة أغاني الشيخة الـــريميتي ورينـــات الوهرانيـــة والشيخة الجنية وبلمّو وعبد الهـــادي بلخيـــاط، وكانـــت تخصص مساء يوم الاثنين لأغاني فريد الأطرش الـــذي تحبـــه كثيرًا. وكانت وهي تخدم سائقي شاحنات النقل المقطـــورة القادمين من مدن بعيدة، لا تتوقف عن سؤالهم عن الغـــزال عيّاش، وظلت تسأل وتسأل وتسأل ولكـــن لا أحـــد مـــن العابرين جاءها بخبر سعيد أو دلها على أثر. ولا تزال، ككل يوم، ككل مساء، ككل صباح، تغير الأسطوانات أغنية بعد أخرى وتنتظر خبرًا عن الغزال الذي هرب، لكـــن لا خـــبر

يُسعد القلب ويُدفئ الجسد، ومع ذلك لم تفقد عمتي ميمونة الأمل.

خمسة وخموس عليها!

وضعت ساقًا فوق ساق، قررت تغيير اسم المحل، من "استراحة الاستقلال" إلى "استراحة عيّاش"، بكت في حجر اليامنة طويلاً قائلة: "هل سيعود الغزال يا اليامنة؟".

مدينة الجزائر 4 يوليوز 2016

الساق فوق الساق

عمتي ميمونة:

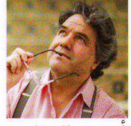
خمسة و خْمُوسْ عليها !

كانت عمتي ميمونة مهووسة بالعناية بجسدها، تهتم كثيرًا بسالفها وتنتف شعر حواجبها وشعر إبطها كل يوم خميس، وتقلّم أظافرها مرة كل أسبوعين. لا تخطو خارج البيت إلا إذا تسوكت وتعطرت، ولا تصبّح على الناس إلا إذا أطلت على وجهها في المرآة، وتأكدتْ بأن ابتسامة عريضة تسكن عينيها الواسعتين، إن لها من الحرص على جمالها ما لا تملكه أنثى أخرى في القرية. في ظرف أسبوع قلبت صفحة سيدي الشيخ عبد الحميد وأقسمت ألا تذكر اسمه في مجلس، وإذا ما سألها أحد عنه قامت من مجلسها واختفت وقاطعت السائل ثلاثة أيام أو أكثر. كانت قادرة على أن تتقدم دون أن يهزمها الزمن أو تحاصرها الذكريات المريضة.

عمتي امرأة ضد الماضي.

عمتي ميمونة امرأة المستقبل والحلم.

خمسة و خْموسْ عليها !!



أمين الزاوي

روائي جزائري يكتب بالعربية و الفرنسية ترجمت رواياته إلى أزيد من اثنتي عشرة لغة، من أعماله:

- الرعشة
- شارع إبليس
- حادي التيوس

صدر للمؤلف عن الدار













منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com



منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com



ISBN: 978-614-02-1484-2
9 786140 214842